فقه الثبات

في أرض الرِّباط

تأليف

جواد بحر النتشة

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

مكتبة الهدى

الخليل – فلسطين

1427هـ 2006م

الإهداء

إلى جميع أهل فلسطين

ذكورا وإناثا، صغارا وكبارا

في مجالات الحياة كافة

إن بناءهم للحياة في هذه الأرض المباركة

يصنعون لها ويُعمّرون، ويزرعون لها ويحصدون

ويستثمرون لها ويكسبون..

إن حياتهم العاديّة في فلسطين

رباط إلى يوم الدين



المقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فستجعل الآيات والأحاديث الواردة في هذا البحث، مسألةَ الحياة في هذه الأرض المقدّسة، ذاتَ معانٍ سامية؛ وستجعل لها طعماً لذيذاً، يُقَوّي صاحبه على حبّ البقاء، ويمنعه من تمنّي الارتحال.

إن معنى الحياة في هذه الأرض لن يقتصر على مجرّد أننا نعيش فيها لأننا وُلِدنا فيها؛ بل هو فوق ذلك بكثير، **إنه يحمل معنى الثبات الهادف، والرباط العارف؛ إنه قرار يجب أن يتخذه الفلسطيني، لا لمجرّد كونه وُلد فيها، بل لكونه يتمثل في ذاته قضيةً من أقدس قضايا هذا العصر، هي قضية الإسلام والعروبة، وقضية الوطن والدين، وهي قضية الحق والعدل؛ إنها قضية فلسطين.**

فقد خطط أعداء هذه البلاد خُططا تُعلم الشياطين كيف يُخططون، من أجل أن يرسموا للّجوء وسياسة التسفير سبيلا جديدا،

يُبعدون به الشعب عن وطنه، بعد أن أزعجهم اختلال التوازن السكاني بين أهل الأرض وبين الدخلاء عليها المغتصبين لها.

فقام هؤلاء الأعداء بقصف السكان بأسلحة الحروب الكبرى، **والسكان عُزّلٌ حتى من أسلحة العراكات بين الأفراد**، بل هم خلوٌ من كل سلاح إلا من إيمانهم بقوّة حقهم، ويقينهم بربهم سبحانه؛ وذلك من أجل أن يترك هذا الشعب المجاهد أرضه لغاصبيها، ليستمتع هؤلاء الغاصبون بحق غيرهم، ولو كان على حساب الشعب صاحب الأرض بشهادة الأرض نفسها وشهادة آثارها، وبشهادة التاريخ، وبشهادة العلم والعلماء، وبشهادة الإنثروبولوجيا والبيولوجيا، وبشهادة الحقّلوجيا والعدلِلوجيا والخيرِلوجيا[1]!!

---

(1) غني عن البيان أنه ليس ثمة علم يحمل هذه العناوين الثلاثة، غير أني ذكرتها لِما تحمله من إيحاء بفقدان الحضارة الغربية، مُصَدِّرة المفاهيم والشعارات في عصرنا، لمعاني الخير والعدل والحق؛ فليس فيها مضامين صادقة لهذه المعاني، وهي المعاني المفقودة دائما حينما يكون المسيطر على البشر جماعات من أفراخ الحضارتين الرومانية واليونانية، ومن تلاميذ سفر يوشع، المؤسس الديني المقدّس لقتل الحياة على الأرض، لتحقيق رفاه ومتعة العنصر القوي المنتصر!!.

إن الحقيقة تتحدّى العدوَّ قائلة: من تُراه يثبت؟ عدوّ ليس له في ديارنا أصل، أم شعب ليس له في غيرها أصل، وهو فوق ذلك يملك رصيدا كبيرا من آياتٍ بيناتٍ تبشّر بالنصر فتقول: (**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون**)؟!

والآن، وقد اختار الشعب ممثليه وفق برنامج الإصلاح والتغيير، الآن سشتدّ الحاجة إلى مثل هذا الموضوع(1).

فإنه لا أحد يقول إن المِحن ستتوقّف، بل إن التحديات تزداد قوة وشراسة، ومحاولات أمريكا عدوّة الإنسان والإسلام، ومن سار في فلكها، تتكاثر لإفشال حركة حماس الإسلامية المجاهدة، والعالَم يقف اليوم مشدودا إلى ما سوف تفعل حماس، هل ستتراجع عن ثوابتها؟ وحَكَمَ كثير من الناس بأنها ستتراجع، **وأحسب أن بعض هؤلاء لا**

---

(1) كان هذا البحث برُمَّته مكتوبا قبل أكثر من عامٍ ونصف، وربما أكثر من عامَين، إلا بعض تعديلات شكلية؛ وكان هذا المدخل التمهيدي مكتوبا أيضا في المدة المشار إليها، ثم بعد عزميَ الآن على إخراجه، رأيتُ أن أضيف إليه هذه الفقرة واللتين تليانها، وذلك بعد قريب من شهر على فوز حماس في الانتخابات التشريعية، التي جرت في الضفة والقطاع يوم 2006/1/25م.

يطرحون توقُّعات بقدر ما يطرح أمانيَ وطموحات، فهو لا يتوقع الإخفاق لحماس بقدر ما يتمناه! ليقول: ها قد لَحِقت حماس بالركب، وسقطت شعارات الخيال والأحلام؛ **وليقول بعض الإسلاميين من مخالِفي حماس في الرؤية: لقد قلنا لكم، وقلنا لكم، وقلنا لكم؛ وحينها سينمو فقه المزايدات أكثر! وسيفرح المُزايدون بتحقّق أمانيهم، وحينها أيضا ستفرح أمريكا وإسرائيل!!**

إنني أدعو الذين يتوقعون إخفاق حماس، أن يتوسلوا إلى الله لتنجح، وأدعو الذين يتمنون إخفاقها إلى طلب المغفرة من رب العالمين، فليس من خُلُق المسلم أن يتمنّى الإخفال لأخيه؛ وغدا سنلتقي عند الله سبحانه، ليكشف طوايا النفوس وما أخفتْه الصدور، وما وارتْه الأفئدة؛ والله يتولانا برحمته وتوفيقه.

إنه لأجل ذلك كله كان لا بد من فقه الثبات في أرض الرباط، **يملأ نفس السائر قدرات على البقاء في الأرض، والثبات عليها، والتلذُّذ بهذا الثبات والرباط،** يحسبها الجاهل أوهاما، غير أن قدرتها على الجذب أشد من قدرة الجاذبية الأرضية على إلصاق كل ما هو فوق الأرض، فيشدُّه إليها، وهي قدُراتٌ تمنع بيعَ الثوابت بالخبز.

فلا مذهب يملك ما يملكه الإسلام من قدرة هائلة على مجابهة أحداث الزمان..

إن أرض فلسطين شهدت حشدا من الكوارث والفواجع التي يندى لها جبين الإنسانية، تتمثل في طرد شعب وتذبيحه وتدمير بيوت أهله والتضييق على من تبقى منهم، ممن لم تمسّه نار القتل أو قرارات الطرد.

وهي كوارث غير متوقِّفة، ولا أحسب أن آخرها سيكون بناء الجدار الفاصل، ولا أحد يعلم ماذا يخفي الغيب!

إن أحداثا كهذه كفيلة ألا تبقي في فلسطين رجلا واحدا إلا أخرجته، ليتكفّف الناس والشعوب في بلادها؛ غير أن الشعب الفلسطيني لم يخرج بعد التهجيرين القَسريّين الأول عام 1948م والثاني عام 1967م، وهو لا يزال ثابتا في أرضه، رغم أنه لا يملك سلاحا للمقاومة غير سلاح ثباته على أرضه..

لقد توازت هذه الكوارثُ على الشعب الفلسطيني مع إحدى الكوارث الكبرى، وهي: تهجير إسرائيل لملايين اليهود إلى فلسطين..

ولقد رأيت أن هذه الأحوال الطاردة تحتاج إلى قوّةٍ معنوية جاذبة، ذات اقتدار على شدّ الناس للبقاء في أرضهم، ولقد تمثّلت هذه القوة المعنوية في أشكال عديدة، منها: كون هذه الأرض أرضَ رباط إلى يوم القيامة، مع قدرة النصوص على بثّ الاستشعار بالنعمة العُظمى في النفس لهذا الرباط، والفضل العظيم لاختيار الثبات في فلسطين..

لقد كانت الأحداث تقول له: اُخرج من هذه الديار، وكانت الأحاديث تقول له: بل اِبقَ فيها! فلأيهما كان النجاح؟!

إن بقاء الشعب الفلسطيني في أرضه، وتكاثره فيها، دليل على نجاح الأحاديث لا الأحداث، وهو دليل على نجاح فكرة البقاء لا الخروج من الأرض..

ولستُ أُنكر أن أسبابا أخرى أسهمت في إبقاء الشعب في أرضه، لكنَّ هذه العوامل الأخرى لم تكن لتمتلك القدرة على إضفاء ألواء العزيمة في البقاء، مع إحساس الكثيرين بالنعمة العظمى لاختيار اللهِ تعالى لهم للبقاء في فلسطين، كما تفعل ذلك فكرة الرباط.

إن انغلاق الطريق أمام كثير ممن يودون الخروج من الأرض، وإن الفقر وقلة اليد؛ كل ذلك أسهم بلا شك في إبقاء الكثيرين في فلسطين، ولكن: **ألا يرى معي القارئ الكريم أن باب الخروج في حقيقته مفتوح للكثيرين غير أنهم لم يخرجوا؟**

إن غريزة حب الوطن التي تميّز بها الفلسطيني قَوّت عزيمة الكثيرين على البقاء، لكن هذه الغريزة هي في حد ذاتها تفتقر إلى مقوِّيات تعزّز عزيمة الثبات، وتُشعر صاحبها بفضل الله تعالى عليه؟ فماذا كانت المقوِّيات والمُعزِّزات على البقاء؟

إن صورة فلسطين في نفس وقلب وعقل الفلسطيني، وهي أنها أرض رباط دائم إلى يوم القيامة، **جعلت للبقاء في فلسطين معنى مريحا للنفس، مُمتعا لها، يقدر على الجذب أكثر من قدرة عوامل الصّدّ على الطرد**، وهو المعنى الغائب عن الكثيرين؛ وأريد في هذا البحث أن أبثّ في النفوس أصولا قادرة على إشعار الشعب بمعاني هذا البقاء، مع الاستشعار بعظيم الأجر والثواب في فلسطين، مع احتمال شظف الحياة، لإبقاء الثابت في ثباته، وعدم مقايضته بالطعام، أو بسمعة دوْلية ورحلات دبلوماسية واستقبالات تشريفية، وجوازٍ أحمرَ قانٍ، يتلوَّنُ كلٌّ شيءٍ لأجل لونه الخلاب، فهو معبود فئةٍ جعلته الثابت الأوّل!

يجب أن تخرج مسألة الحياة في هذه الديار، من معنى الوجود الطبيعي المتمثل في كون الشعب وُلد فيها، فهو ساكن فيها، إلى معنى الوجود المُريد المُختار، الواعي بمعانيه الدينية والسياسية والوطنية كافة؛ وإن هذا البحث اختار بث الوعي بأحد هذه المعاني الدينية، وهو المتمثِّل في كون هذه الأرض أرض رباط إلى يوم القيامة، وهو معنى قصّرت فيها وسائل الإعلام والتربية وسواها تقصيرا أيما تقصير.

وأودّ أن أهمس في آذان أرباب التخصص في شتى العلوم، وآذان أرباب الأعمال: قارنوا أيها السادة بين ما ستنالونه من أجر الدنيا حين اختياركم أرضا غير أرضكم لتبذلوا قدراتكم في خدمتها، وبين أجر الرباط الذي ستقرؤونه في هذا البحث، **سترون أن أمرا ما سيشدّكم إلى أرضكم شدّا، وستختارون متعة الرباط في فلسطين على كل متع الحياة.**

ثم اصنعوا الحياة في أرضكم، فأنتم تملكون من التخصصات والمؤهلات، ما يجعل الأرض اليباب بستان خصاب، وحينها ستنالون الأجرين معا: أجر الدنيا وأجر الآخرة.

فابنوا وعمِّروا وشيِّدوا، وازرعوا الأرض، وعلِّموا الشعب، وأصلحوا بين الناس، وانشروا الوعي بينهم؛ واجعلوا كل ذلك بنية الرباط والثبات رغم المحن، واجعلوها خالصة لرب العزة سبحانه، ثم انظروا فضل الله عليكم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

إن هذا دورٌ عظيم لمن انتبه له! وهو جهاد لا قتال فيه.

وإنني أقصد بأرض الرباط في بحثي هذا أرضَ فلسطين، غير أني لا أقصد انحصار هذا اللقب فيها وحدها، وإنما كل ما هنالك أن لها اختصاصا بدوام الرباط عليها، لِما سيأتي؛ ثم إن غالب وصف الرباط في فهمنا وصف طارئ غير لازم؛ **فما يمكن أن يوصف من البلاد بأنها أرض الرباط في زمان، لا يلزم أن يوصف بهذا الوصف في زمان آخر، وهكذا، وهذا على سبيل الإجمال؛ إلا فلسطين وأفقها الشامي، فهما أرض رباط دائم**، بسبب ما سيتبين لنا من أن وضعهما التاريخي والديني جعلهما دائما أرض صراع، مما جعل الرباط الدائم فيها ضرورة مستمرّة؛ وإنما جاء بحثي هذا يحوم حول فلسطين تحديدا كإحدى أهم أراضي الرباط في عالم الإسلام، بسبب ما تعيشه فلسطين من تحدّ صهيوني صليبي خاصّ، لا يغفل أحد من المسلمين ما وراءه.

وأخيرا: فهذا البحث لعامة الشعب، الذي يجب أن يعي معنى وجوده دينيا ووطنيا وسياسيا، فهو لا يطلب من الشعب أكثر من الوعي بمعنى البقاء الهادف للمحافظة على الأرض عربية إسلامية.

إنه يحوِّل معنى وجودِنا في فلسطين من معنى بيولوجي وتُرابيٍّ بحت، إلى معنى ذي دلالات دينية، تحمل في طيّاتها المفهومَ الأمثلَ للوطنية الراشدة، ليتضمّن فيما يتضمّنه من المعاني: قُدرةً هائلة على الثبات، مع آمالٍ لا تنقطع بمعيَّة الله تعالى؛ إنها معانٍ غزيرة الثواب، ثريَّة العطاء.

فإن أحسنتُ فممن يربط على القلوب والأبصار فيُثبّتها، وإن أسأتُ فمما في النفس من الأكدار فيُشتِّتُها، والله عزيز غفّار.

جواد بحر النتشة

الخليل

25 شعبان 1427هـ

2006/9/19م

إضاءة لغوية في معاني الثبات والرباط[1]

للثبات والرباط في لغتنا معنيان هما الأصل لنبعٍ من المعاني تتحدّرُ من جذري هاتين الكلمتين، وتفيض من نافذَتَيْ أصلَيْهِما حين انفتاحهما اشتقاقات لكل ما له صلة بهما من قريب أو من بعيد.

وسيرى القارئ الكريم بعض الإطالة في بيان معنييهما، غير أنها إطالة مفيدة إن شاء الله تعالى؛ ونبدأ أولا بمعنى الجذر اللغوي: الثبات.

(1) لغة العرب ذات تميز خاص؛ فهي تستجيب لمتطلبات الحياة، وحاجتها إلى التطور، وهي أدق من كل لغة سواها في تصوير أحوال النفس، والفرد والمجتمع؛ حيث إنها ذات عطاء خاص، وتجربة عاشت مع الإنسان منذ قديم عهوده، بداوة وحضارة، وهي منذ تجاربه الحضارية الأولى، ارتقت معه في آفاقه، مسبلةً على رؤاه وحضارته وعلومه وفلسفته، وإغراق هذه الفلسفة وتلك العلوم وبُعد غورها أدقَّ الألفاظ، واستطاعت أن تتواضع معه في تلكّؤ مسيرته –رغم ما لديها من رصيد واقتدار– مستجيبة لبساطته؛ وتدفّقت من جذورها أدقّ المفردات وأروع التعبيرات لجميع الأشياء والأحوال، ولا زالت تملك –فوق رصيدها الكبير– قدرات تساير مسيرة تطوّر الحياة، وفق بناء هرمي يبدأ من الجذر اللغوي، ليتفتق منه ما يلاحق به سنن الحياة.

لكن لا بد أن أبين أنني أهدف من اقتحامي لجة هذا البحث، إلى الكشف عن بعض معاني هذا الثبات في أرض الرباط خاصة.

هذا، ولم أقصد من وراء هذا التعداد والتفصيل لمعاني الثبات والرباط التي سيقرؤها القارئ، أن هذه المعاني التي سأذكرها فيما يأتي هي كل ما هنالك، وأنها –حصرا دون غيرها– هي التي يكتمل بها المسير؛ **بل أقصد أنها سهام صائبة، شأنها أن تسهم في تثبيت النفوس، ومواجهة ما من شأنه أن يفتّت صلابتها وهي في طريقها إلى حقها؛** مع علمي أن ثمة سهاما أخرى صائبة، تحمل الهمَّ نفسه، وتهدف إلى الغاية ذاتها، تركت الحديث فيها خشية التطويل، هذا والله المعين.

أولا: معنى الثبات لغة:

سيرى القارئ الكريم بعض الإيحاءات النفسية والتربوية في بعض ما ننقله هنا، وسنستخرج بعضا آخر منها في سياق ما سننقله[1]..

---

(1) ففصلت هنا في معنى الثبات لغة، رغم ما فيما ذكرتُ من اختصار كثير عما هو في المعاجم؛ وذلك للأهمية الخاصة التي تتمتع بها هذه الكلمة في بحثنا هذا؛ ولِما لها من صلة بكل معاني الإسلام والإيمان والمبدأ والالتزام، وبمعنى الرباط

يقول الإمام اللغوي أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه: معجم مقاييس اللغة: ((ثبت، الثاء والباء والتاء كلمة واحدة، **وهي دوام الشيء**، يقال: ثبت ثباتا وثبوتا، ورجل ثبت وثبيت))[1]؛ وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: ((ثبت ثباتا وثبوتا، فهو ثابت وثبْت وثبت، وأثبته وثبّته، والثَّبيت: **الفارس الشجاع**))، وفيهه: ((وقوله تعالى:(**لِيُثْبِتوك**) أي **ليَجرحوك جراحة لا تقوم بعدها**))[2]؛ وفي موسوعة اللغة الكبرى لسان العرب ننطلق في رحلة لا يستمتع بها إلا ذو نفَس وثبات، ونقتنص في رحلتنا معه قولَه: ((ثبت فلان في المكان يثبت ثبوتا، فهو ثابت **إذا أقام به**))[3]، وكذا ما نقله عن الزَّجّاج في قوله عز وجل: (**وكُلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**)، قال: ((معنى

نفسه، فكل هذه المعاني في حاجة إلى تثبيت في نفس المؤمن، بخلاف الرباط، فله دخول ما في وجه من وجوهه في معنى الثبات كما سيتضح.

(1) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، (399/1).

(2) القاموس المحيط، تأليف: الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (190-191).

(3) لسان العرب، تأليف: ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، (465/1-166).

تثبيت الفؤاد: **تسكين القلب**، ههنا ليس للشك، **ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب كان القلب أسكن وأثبت أبدا**،...، ورجل ثبْت: أي **ثابت القلب**،...، ورجل له ثَبَت عند الحملة بالتحريك: أي ثبات،...، **وقول ثابت: أي صحيح**))[1].

ويقول الزمخشري في إيحاءة له تُصوِّر بعض ما نحن فيه من معان، وتوحي بما يدلي إلى صُلب موضوعنا بوشائج القربى التي لا تنفصم: ((ورجل ثبت وثبيت: **عاقل متماسك**، وقيل: **هو القليل السقط في جميع خصاله...**))[2]، وفي هذا إشارة إلى جريان ينابيع مروءة النفس

---

(1) وفي: المُغرب في ترتيب المُعرب لأبي الفتح ناصر الدين المُطرّزي (112/1): ((الثبوت والثبات كلاهما مصدرُ ثَبَتَ إذا دام، والثَّبَتُ بفتحتين، بمعنى الحجة، اسم منه..)).

(2) أساس البلاغة، تأليف: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (69)، والزمخشري إمام بلغاء عصره، وهو يكشف في: أساس البلاغة ما ينتقل باللفظ من بسيط أساسه، إلى جميل بلاغته، فيقول في سطوره التي قرأ القارئ آخرها: ((فلان ثابت القدم، من رجال ثُبَّت، ورجل ثبْت الجَنان، وثبْت الغَدَر، إذا لم يزلَّ في خصام أو قتال، وفارس ثبْتٌ وثَبيت؛ قال العجّاج:

... ...   ثبْت إذا ما صيحَ بالقوم وقَرْ)).

من رحابة معنى الثبات، فإن من لوازم الثبات: قلةَ السقط في جميع الخصال، **وأي سقط أعظم من التزلزل والانحناء والتحول بعد معرفة الحق إلى الباطل**.

ونقرأ للراغب الأصفهاني في كتابه مفردات ألفاظ القرآن: "**الثبات ضد الزوال**، يقال: ثبت يثبت ثباتا، قال تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا**)، ورجل ثبْت وثبيت في الحرب،...، وقوله تعالى: (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا**)، أي **يقويهم بالحجج القوية**"[1].

والمعاجم الاصطلاحية، غير خارجة عما تتابعت عليه معاجم اللغة بالمجمل، فهذا المُناوي في معجمه الاصطلاحي: التوقيف على مهمات التعاريف يقول: "**الثبات ضدُّ الزوال**، والثبات والثبوت **ضدُّ**

(1) مفردات ألفاظ القرآن، تأليف: الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، (171)، هذا، ولا يخرج كلام الفيروزآبادي في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (2/347-348)، عما يسوقه أبو الفرج الأصفهاني في مفرداته، بل إن كلامه يكاد يكون نقلا حرفيا عما في مفردات أبي الفرج..

التزلزل، وثبت الأمر صحّ،...، **وثَبْتُ الجنان؛ أي ثابت القلب**..))[1]؛ وثمة معاجم اصطلاحية أخرى، فيها مزيد بيان[2].

وينبهنا السمين الحلبي إلى مقابلة بين الثبات وضدّه في كتابه عمدة الحفاظ؛ وذلك حين يقابل بين شطري آية ذات صلة بما نحن فيه، فيقول: ((فإن تقوية الشيء يثبته ولا يزيله، ومنه: (**فثبتوا الذين آمنوا**)، ألا ترى كيف قابله بقوله: (**سألقي في قلوب الذين كفروا**

---

(1) التوقيف على مهمات التعاريف، تأليف: محمد عبد الرؤوف المُناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، (219).

(2) ففي الكليات لأبي البقاء، يتناثر الحديث في بعض مشتقات (ثبت) في أكثر من موضع، فهو يقول، (377)، لدى شرحه لمعاني (الحركة) ومقابلات هذه المعاني: ((**والثبات مقابل النقلة**، فهو أعم من السكون، فإن الغصن المتمايل ثابت غير ساكن..))، ويقولُ شارحاً كلمةَ أُثبِت (39): ((كل من شُدّ فقد أُثبِت لأنه لا يقدر على الحركة في الثبات والمجيء))؛ وفي المعجم الاصطلاحي الموسوعي كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للعلامة محمد علي التهانوي، (536/1)، فنجده يقول: ((الثابت: هو **الموجود والذي لا يزول بتشكيك المشكك**))، ((الثبات هو: **عدم احتمال الزوال بتشكيك المشكك**..)).

الرعب)»[1]، وهذا يشير إلى أن من **لوازم معنى الثبات: انتزاع أوهام الخوف والرعب من النفس،** فإن الله انتزع ما في نفوس الكافرين من الثبات، بإلقاء ما هو من أضداده في نفوسهم، وهو هنا الرعب، **وهل أعظم من الرعب في زلزلة الأركان؟!** وإذا أُلقي الرعب في نفوس الذين كفروا وعرف المسلمون ذلك، أدّى ذلك إلى انتزاع الخوف من قلوب المؤمنين، وهي مقابلة حسنة: قلوب مؤمنةٌ ثابتةٌ، وقلوب كافرة يُزلزلها الرعب.

ويقول السمين الحلبي أيضا: «وقوله: **(وتثبيتا من أنفسهم)** أي طمأنينة لا قلق ولا تزلزل معها»[2]، ومن هذا نتبين أن من أهم لوازم الثبات: **الطمأنينة، وانتزاع أوهام الخوف والرعب** من نفس المؤمن..

وهذا المعنى مسنود بما لدى كبار اللغويين كما ذكرناه عن ابن منظور فيما نقله عن الزجّاج في قوله في معنى تثبيت الفؤاد إنه تسكين

---

(1) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي، (314/1).

(2) المرجع نفسه، (314/1)، ويتابع السمين الحلبي قوله: «ومثله قوله: **(وثبت أقدامنا)**، وقوله: **(ليثبتوك)**، يريد: **ليفعلوا بك فعلا يحبسونك به في ذهابك وحركتك..**».

القلب، **وأن هذا ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب كان القلب أسكن وأثبت أبدا**؛ فإن من لوازم الثبات المزعج للخصم: قوةَ حجة وسطوعَ برهان **حتى يجلبه أو يغلبه!**

بعد هذه الجولة في كتب اللغة ومعجمات لغة القرآن والمعجمات الاصطلاحية، فإن باستطاعتنا أن نعرّف الثبات بقولنا: ((**هو حالة يحصل بها للمرء اقتدار على الدوام على الشيء، وعدم التزلزل أو التحول عنه لشبهة أو شهوة أو شدّة**)).

وهكذا سنكون مهيّئين للانتقال إلى معنى الرباط لغة فاصطلاحا..

ثانيا: معنى الرباط لغة:

في معجم مقاييس اللغة لابن فارس نجد ما يلي: ((ربط: الراء والباء والطاء أصل واحد يدل على **شدّ وثبات**، من ذلك ربطت الشيء أربطه ربطا، والذي يُشدّ به رباط.

ومن الباب الرباط: **ملازمة ثغر العدو، كأنهم قد رُبطوا هناك فثبتوا به ولازموه**، ورجل رابط الجأش، أي شديد القلب

والنفس..»[1]؛ وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: «.. والرباط: ما رُبط به، ج: رُبُط، والفؤاد، **والمواظبة على الأمر، وملازمة ثغر العدوّ**، ...، أو **المرابطة: أن يَربُط كل من الفريقين خيولهم في ثغره، وكلٌّ معدٌّ لصاحبه**، فسمي المقام في الثغر رباطا..»[2]؛ وعلى ما قرأناه من معاني الرباط للفيروزآبادي وابن فارس، يدور بالمجمل كلام لسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة[3] للزمخشري، وذلك فيما له بمجالنا تعلّق، ويضيف اللسان: «..الرباط في الأصل: **الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها**..»[4].

وفي المفردات: «..وسمي المكان الذي يُخصّ بإقامةِ حفظةٍ فيه: رباطا،...، والمرابطة ضربان: **مرابطة في ثغور المسلمين**، وهي

---

(1) معجم مقاييس اللغة، (478/2).

(2) القاموس المحيط، (861).

(3) أساس البلاغة، (217)، ويُنظر أيضا (المُغرب)، (316/1)، وفيه تفسيره لقوله تعالى من الآية (200) من سورة آل عمران: (**ورابطو**) بقوله: (**أي أقيموا على جهاده بالحرب**).

(4) لسان العرب، (1561/3) ولابن منظور تفصيلات ونُقول يطول بها المقام، على ما عُرِف به في كتابه اللسان.

كمرابطة النفسِ البدنَ، فإنها كمن أقيم في ثغر وفُوِّض إليه مراعاته، فيحتاج أن يراعيَه غير مُخِلّ به..))[1]؛ وفي عمدة الحفاظ: ((..وأصل الربط: العقد في الأعيان، نحو ربطتُ الفرسَ أربطه، **فاستعير في إلهام الطمأنينة والصبر على المكاره لحصول تقوية القلب وتشديده بتوفيق الله تعالى**، وسُمّي المكان الذي يُخص بإقامة حَفَظة فيه رباطا..))[2]، هذا، ولا يخرج ما ذكره الفيروزآبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز من معنى الرباط، عما نقلته عن الراغب في مفرداته، والسمين الحلبي في عمدته[3].

وعلى ما تقدم، وعلى ما في معاجم اللغة العربية، ومعاجم مفردات القرآن الكريم، مما تيسر منها؛ فإننا نستطيع أن **نحصر معاني الرباط جميعَها في الشدّ والتثبيت والالتزام**، وكأن المرابطين في مكان،

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن، (338-339).

(2) عمدة الحفاظ، (68/2-69)؛ وذكر في العمدة المعنيين الذَين ذكرهما الراغب الأصفهاني في المفردات، ولقد ذكرنا أحدهما فيما نقلناه عن المفردات، والمعنى الثاني هو: مرابطة النفس، وذَكَر من أمثلتها حديث رسول الله ﷺ: (**انتظار الصلاة بعد الصلاة**)..

(3) يُنظر: بصائر ذوي التمييز، (31/3-32).

أو المرتبطين به؛ **كأنهم قد شُدوّا إلى أماكن ذات اعتبار خاصٍّ في نفوسهم**، فثبّتوا أنفسهم فيها ولازموها، وكأن الذين رُبطت قلوبهم على عقيدة ما، أو رُبط على قلوبهم؛ **كأن معانيَ ما قد ثبتت في قلوبهم، فملكت عليهم نفوسهم**، وغمرت وُجدانَهم وجعلت من أبدانِهم خدما لهذه المعاني.

وإذا كان أصل معنى الرباط محصورا في الماديات والمحسوسات، فإنه استُعير للمعاني، فصحّ أن يوصف به القلبُ، وأن يطلق على طمأنينة النفس، وعلى إلهام القلب الطمأنينةَ والصبرَ على المكاره، وذلك لحصول تقوية القلب وتشديده بتوفيق الله تعالى، كما هو واضح من كلام السمين الحلبي فيما نقلته عنه[1].

هذا، وأجدني الآن مسوقا إلى بيان المعنى الفقهي للرباط، وهو مجمل ما سيقرؤه القارئ الكريم إن شاء الله تعالى في فقراتٍ تالية، أرجو الله تعالى تسديد القلم لشقّ جدول المسير، لتنساب الحقائق عبره في يسر وسهولة، ودونما أدنى تكلُّف.

---

(1) عمدة الحفاظ، (2/68-69).

المفهوم الفقهي للرباط

سنرى ها هنا تطوُّرا في المعنى الفقهي للرباط، ألْزَمَ به تحوُّلُ حال الأمةِ عبر تاريخها المجيد، وتحوُّلُ طبيعة الصراع بينها وبين من يُعادونَها.

وبما أن أصل معنى الرباط سابحٌ في آفاق معاني الثبات في لغة العرب، وما يتضمنه هذا المعنى من شدّ وعقدٍ، كما تبين معنا في صفحات ماضية؛ فإننا سنرى أن معناه الاصطلاحي لا يخرج إجمالا عن معناه اللغوي...[1].

ففي الموسوعة الفقهية نقرأ ما يلي: ((الرباط والمرابطة: **ملازمةُ ثغر العدوّ**، وأصله: أن يربط كل من الفريقين خيله، ثم صار لزومُ الثغرِ

---

(1) لا يحصل خلاف بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي إلا كما يحصل الخلاف بين الخاص والعام، أو بين المطلق والمقيد. ذلك أن المعنى الاصطلاحي يقوم على أصلين، لا يغيب عنهما ألبتّة، وهما: اللغة والمجال العلمي الخاص، فتتم عملية استخلاص مما في اللغة من معان تناسب التخصص، فتختصر سعة أصل المعنى اللغوي، أو يضاف عليه؛ كل ذلك بما يناسب مجال التخصص.

رباطا..))[1]؛ وفي النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري: ((الرباط في الأصل: **الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها**))، ونَقَل عن القتيبي قوله: ((أصل المرابطة: أن يربط الفريقان خيولهم في ثغر، كل منهما مُعِدّ لصاحبه، فسمي المُقام في الثغور رباطاً))[2]؛ وهذا التعريف بهذا الشكل يرسم صورة حيةً وذات حركة ملحوظة لحالة الصراع حينما تقع بين أهل الإيمان وأهل العدوان، وكيف أن كلا الفريقين يرصد صاحبه، وعلى هذا، وبما أن المؤمن مرصود من الكافر في حالة الصراع ومترصِّدٌ له؛ فإن من يكونُ مترصِّدا من المؤمنين للكافرين المحاربين، أو مرصوداً من قِبَلِهم، فإنه يكون مرابطا، إذا كان هذا الترصُّد في مكان مقصود من قِبل العدوّ بخصوصه.

وفي فتاوى الإمام ابن تيمية: ((..حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه (**لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر**

---

(1) الموسوعة الفقهية، إصدار: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، (ج76/22).

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، (186-185/2).

عند الحجر الأسود)، فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابُه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعانٍ منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة، فإن **الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدوُّ ويخيف العدوَّ، فمن أقام فيه بنية دفع العدوِّ فهو مرابط**))[1].

وفي فتح الباري للحافظ ابن حجر عند شرحه باب فضل رباط يوم في سبيل الله من أبواب صحيح البخاري، نقرأ أن الرباط هو: ((..**ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم**))[2]، ويُفهم من هذا أن الملازمة للثغور جزء من معنى الرباط.

وقال الأزهري الإمام اللغوي المعروف: ((في قوله تعالى: **(ورابطو)**، قولان، أحدهما: **أقيموا على جهاد عدوكم بالحرب وارتباط الخيل**، والثاني: ما قال رسول الله ﷺ أنه: **(إسباغ الوضوء**

---

(1) مجموعة الفتاوى، للإمام ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز (230/28).

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، (101/6، ح: 2892).

على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط)؛ جعل هذه الأعمالَ مثلَ مرابطةِ الخيل لجهاد الأعداء))[1]، فيتحصّل لدينا أن الرباط يُطلق على طاعتين خاصتين، هما: لزوم الثغور، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

ويقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، وهو أحد أئمة اللغة والتفسير في عصرنا، في كتابه التحرير والتنوير: ((وقوله: (**ورابطوا**)، أمر لهم بالمرابطة، وهو مفاعلة من الربط، وهو **ربط الخيل للحراسة في غير الجهاد خشية أن يفجأهم العدو**، أَمَرَ اللهُ به المسلمين ليكونوا دائما على حذر من عدوهم تنبيها لهم على ما يكيد به المشركون من مفاجأتهم على غِرّة بعد وقعة أحد..))[2]؛ ويقول أيضا: ((وكانت المرابطة معروفة في الجاهلية، وهي ربط الفرس للحراسة في

---

(1) نقلا عن (مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام)، للإمام أبي زكريا، أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدُّمياطي المعروف بابن النحاس، تحقيق: إدريس محمد علي، ومحمد خالد اسطنبولي، (367/1)؛ وفي حاشية تحقيق الكتاب أن نص الأزهري هذا الذي نقلناه، ليس موجودا بحروفه في كتاب تهذيب اللغة بل هو موجود بمضمونه.

(2) كتاب (التحرير والتنوير) تأليف: محمد الطاهر بن عاشور (208/4).

الثغور، أي الجهات التي يستطيع العدوّ الوصولَ منها إلى الحي، مثل الشعاب بين الجبال))، وعلى هذا؛ **فلا يُشترط لمعنى الرباط كون الحرب حاصلة، بل المُشتَرَط أن يكون توقّع الحرب والأذى والغدر والهجوم حاصلاً.**

وفي السِّيَر الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنه وشرحه للإمام السرخَسي رحمه الله بعد ذكر حديث سلمان رضي الله عنه في فضل الرباط: ((والمرابطة المذكورة في الحديث عبارة عن **المقام في ثغر الأعداء لإعزاز الدين، ودفع شر المشركين عن المسلمين.**

وأصل الكلمة من ربط الخيل، قال تعالى: **(ومن رباط الخيل)، فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليُرهب العدوّ به، وكذلك يفعل عدوّه، ولهذا سُمي مرابطة، لأن ما كان على ميزان المفاعلة يجري بين اثنين غالبا))**[1].

---

(1) شرح (كتاب السيَر الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء الإمام السرْخَسي)، تحقيق: الدكتور محمد صالح المُنجّد، (ج1/6)، وسيأتي ذكر هذا الحديث المشار إليه لاحقا إن شاء الله.

ويقول موفق الدين ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني على متن المُقنع: ((معنى الرباط: الإقامة بالثغر مقوّيا للمسلمين على الكفار، **والثغر كل مكان يخيف أهلُه العدوَّ ويخيفهم**، وأصل الرباط من رباط الخيل، لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم، كلٌّ يُعدّ لصاحبه، فسُمّي المقام بالثغر رباطا وإن لم يكن فيه خيل، وفضله عظيم وأجره كبير، قال أحمد: **ليس يعدل الجهادَ عندي والرباطَ شيءٌ**، والرباطُ دفعٌ عن المسلمين وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو؛ فالرباط أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعنت والمشقة))[1].

وقال أبو الوليد ابن رشد القرطبي في البيان والتحصيل: ((الرباط هو أن **يخرج من مترله إلى ثغر يقيم فيه لحراسة ذلك الثغر ممن يجاوره**... والأظهر في تأويل ذلك أنه عند شدة الخوف على أهل ذلك الثغر، وتوقع هجوم العدو عليهم وغلَبَتِهم إياهم على أنفسهم

---

(1) المغني على متن المقنع، تأليف الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي، (370/10) هذا، ويكاد يكون هذا النص الذي نقلته موجودا بكماله وحروفه في الشرح الكبير على المقنع للإمام شمس الدين ابن قدامة المقدسي، والمطبوع على حاشية المغني (368/10-369).

ونسائهم وذراريهم؛ إذ لا شك في أن إغاثتهم في ذلك الوقت وحراستهم مما يُتَوقع عليهم، أفضل من الجهاد في أرض العدوّ..»[1].

ورأيت ابن النحاس الدُّمياطي قد فصّل في مفهوم الرباط تفصيلا خاصا، فالرجل من أهل الجهاد والمرابطة، كما هو المعروف عنه، وهو قد مات شهيدا[2]، وستكون خبِرته الفكرية والفقهية أكثر رجاحة، ولذا فنحن ننقل قوله بشيء من الاستيعاب له..

يقول ابن النحاس الدُّمياطي في مشارع الأشواق: «الرباط المطلوب عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر يُتَوقّع فيه نزول العدوّ بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد من فيه من المسلمين، **وكلما**

---

(1) البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تأليف أبي الوليد ابن رشد القرطبي، تحقيق: محمد العرايشي وأحمد الحبابي (17-298-299).

(2) قال محققا مشارع الأشواق، (19/1): وفي سنة 814 هـ هجم الفرنج على أهل الطينة، قرية في مصر، وخرج أهل دمياط لنجدتهم، وكان كبيرهم ابن النحاس، ودارت معركة كبيرة بينهم، فقُتل مقبلا غير مدبر.

كان الخوف أشد في مكان كان الرباط فيه أفضلَ والثوابُ أجزلَ، وسواء كان ذلك المكان ساحلَ بحرٍ أو غيرَه»[1].

ويقول أيضا: «.. أن الحراسة في سبيل الله تعالى من أعظم القربات وأعلى الطاعات، وهي أفضل أنواع الرباط، وكل من حرس المسلمين في موضع يُخشى عليهم فيه من العدو فهو مرابط ولا ينعكس، **فللحارس في سبيل الله أجر المرابط وفضائل أخرى كثيرة؛ منها أن النار لا تمس عينا حرست في سبيل الله**»[2].

وثمة مفهوم جديد لمعنى الرباط، توسّع فيه صاحبه توسُّعا أدخل فيه أهل العلم والفكر، من المنافحين عن الإسلام، هو تعريف الدكتور محمد روّاس قلعه جي، إذ يقول في الموسوعة الفقهية الميسرة: «**الرباط اليوم هو رصد تحركات العدو الكافر العسكرية والفكرية من أي**

(1) مشارع الأشواق، (1/ 408).
(2) المرجع نفسه، (1/413).

موقع كان))[1]، وسيرى القارئ الكريم تعليقا على رؤية الدكتور قلعه جي هذه في صفحات قادمة إن شاء الله تعالى[2].

---

(1) الموسوعة الفقهية الميسّرة، للدكتور محمد روّاس قلعه جي، (931/1).

(2) بعد ما تقدم، فلقد رأيت أن أنقل بعض أقوال الأئمة هنا، لإثراء الموضوع.. ففي تفسير المُحرّر الوجيز تأليف أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (560/1): ((والقول الصحيح هو أن المرابطة هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سُمّي كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطا، فارسا كان أو راجلا، واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي ﷺ: (**فذلكم الرباط**)، إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجّية، والرباط اللغوي هو الأول)).

غير أنه يظهر من كلام العلامة صديق حسن القُنوجي أن انتظار الصلاة إلى الصلاة يُعتبر رباطا حسب المعنى اللغوي، لا على وجه التشبيه بالرباط الذي نحن بصدده. لذا فقد نقل عن الخليل بن أحمد قوله: الرباط: ملازمة الثغور ومواظبة الصلاة، ثم عقّب قائلا: كذا قال، وهو من أئمة اللغة؛ يُنظر تفسيره: فتح البيان في مقاصد القرآن، (581/1).

ويقول الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل في الفتوحات المكية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، (350/1): ((أصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون كل من الخصمين مستعدا لقتال

وعلى كل ما تقدم، وبناء على ما نفهمه من شرع الله تعالى، من أن الأصل في تعريف وشرح الشرع هو لغة العرب، وأننا لا ننتقل إلى تقييدِ إطلاقٍ لُغَوي إلا بما يردنا من أدلة لتقييده؛ وبناء على أن الرباط ليس من الأسماء ذات الحقيقة الشرعية، فإننا نلتزم بمعناه في اللغة، بخلاف ما عليه حال الصلاة والحج مثلا؛ حيث إن معناهما لا يخرج أبدا عند الإطلاق عن المعنى المتعارف عليه بين الناس، أعمالا وأذكارا وأحكاما؛ بناء على كل ما تقدم، فإنني لا أرى نفسي مضطرة إلى الالتزام بمعنى معيّن مما ذكره الأئمة رضي الله عنهم لكلمة الرباط، تلك التي ورد في فضل ما تحمله من معنى جليلٍ أحاديثُ شريفةٌ صحيحة، وهي ذاتها التي أمرت بها آية آل عمران؛ أي أن المعنى اللغوي للكلمة

الآخر، ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط وإن لم يكن له مركوب مربوط».

ويقول الشيخ سعيد حوّى رحمه الله في تفسيره الأساس في التفسير: «وأما المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة، لأنها رباط ضد الشيطان، وكذلك المرابطة على الثغور حماية لأهل الإسلام ضد أعداء الله، والمسلم إما أن يكون في مثل هذا أو في مثل هذا»، ثم ذكر حديث الرسول ﷺ: (**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا..**).

هو الذي يقيّدنا لا سواه، ما لم نجد من أدلة الشرع ما يلزمنا بمعنى معيّن، ولا أراه موجودا[1].

وأنا أطرح للرباط تعريفا، ساهم في اختياره الحال التي يحياها شعبنا، ممزوجا بالأحاديث التي تجعل من الشام أرض رباط إلى يوم

---

(1) ولي في محاولة تحديد المفهوم من خلال الأدلة وحقيقة الشيء المراد تعريفه، أسوة بالأئمة رضي الله عنه فلقد كان تعريفهم للمصطلحات الشرعية يمرّ —أحيانا– عبر كثير من النقاش حتى يَخلُص لهم تعريف ما، وقد لا يسلم عند كثير من الأئمة من النقد، ومن شاء فليَقتحم لجة كتب العلم الشرعي، ليرى بنفسه كيف جرّت القرون —أحيانا– قبل الاستقرار على تعريف للمصطلحات، وكيف يقال عن تعريف ما: إنه غير جامع، أو غير مانع، أو فيه تكرار..

وهذا الحافظ ابن حجر، حيث يقول حول تعريف الرباط: "قال ابن التين: بشرط أن يكون غير الوطن، قاله ابن حبيب عن مالك، قلت: فيه نظر في إطلاقه، فقد يكون وطنه وينوي بالإقامة فيه دفع العدو، ومن ثم اختار كثير من السلف سكنى الثغور.."؛ فها نحن نراه يردّ قول الإمام ابن التين بما هو معلوم من فعل السلف في رباطهم.

أي أن تقييد المفهوم والمعنى يذهب مع الرياح إن كان ثمّة ما يخالفه مما يمكن أن يساهم في تحديده من الأصول.

القيامة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ بعد أن حاولت ربط كل ذلك بخيوط متينة من اللغة ودلالاتها..

فالرباط في تقديري هو: **التزام ثغر أو مكان**[1] **يُخشى حين تركه استيلاءُ الأعداء عليه، وما يتبع هذا الاستيلاء من زوال كلمة الإسلام بالكلية منه**؛ وإنما قلت: ..زوال كلمة الإسلام عنه بالكلّية، لأنه ربما كان العدوّ قد استولى عليه بوجهٍ من وجوه الاستيلاء، ولم يستولِ عليه من وجه آخر، **بأن يكون محتلا له، غير أن أهله لا زالوا فيه، مما يعني أن كلمةَ الإسلام لا زالت موجودةً فيه على مستوى ما؛ فالرباط يعني هنا البقاء فيه، حتى لا تضيع كلمة الإسلام منه بالكلّية.**

وإنما جعلت التزام أي مكان فيه ما وصفتُ، دون اشتراط أن يكون ثغرا من ثغور المسلمين، ما نعلمه من واقع صراعنا مع عدو الله

---

(1) كان يكفينا أن نقيّد معنى الرباط بأنه التزام ثغر..، ولكني رأيت إضافة أخرى لتقييد المعنى، وذلك بكلمة: مكان..، وذلك أننا لا نرى أن الرباط مُحتَكَرٌ في الثغور، إلا على سبيل التوسعة في معنى الثغور ذاتها، ولقد أشرت إلى ما يُلزِمُنا بذلك.

في ديارنا، مع ما بيّنه الحديث الذي سننطلق في بعض بحثنا منه، من أن الشامَ أرضُ رباط إلى يوم القيامة.

وإنما كثر في كلام الأئمة السابقين رضي الله تعالى عنهم ذكر الثغور في شرحهم للرباط، وذكرُ القتال عند شرحهم لمعنى الرباط؛ بسبب ما كانوا عليه من أمان داخل دولة الإسلام، وما كانوا عليه من حال مفادها أن الخوف على الأرض والعرض والناس والدين، إنما هو كائن أو آتٍ من خارج أرض الأمة، وخارج بلاد المسلمين، أي مما وراء الثغور والحدود؛ لا كحالنا المنبئ عن أن العدوّ موجود في قواته وطغيانه داخل أرض من أرض الأمة، سيطر عليها في غفلة من الأمة وخيانة ممن خانوها، فاستحقّ الأمر معنىً منسجماً مع هذا الحال، فكان الرباط هنا هو الثبات على الأرض، بالمقام فيها، محافظَةً قدر الإمكان على معاني العروبة والإسلام فيها، فإن مجرّد البقاء بنية الحفاظ على هويّة الأرض، هو شكل الرباط المطلوب في حالنا وأرضنا، وسيأتي تفصيل هذا.

ولا أرى فيما قلته أية غضاضة؛ فلا هو مخالف لأمر الشرع بالرباط، إذ لم يبيّن الشرع معناه، ولا الذين حصروه في المقام في الثغور

قدّموا دليلا لهذا الحصر، وإنما، وكما قلت: يرجع أمر أولئك الأئمة في رؤيتهم لمعنى الرباط، إلى ما كان من رؤيتهم لحال المسلمين حينذاك، وذلك في العصور التي تمّ فيها ترسيخ مفاهيم الفقه الإسلامي، **فلقد رُسِّخت مفاهيم الفقه الإسلامي في عهود لم يكن للرباط فيها من معنى سوى المقام في الثغور**.

لزوم المكان تعبير آخر عن الرباط

هذا، ولرُبما عُبر عن الرباط بتعبير آخر، ذكره الحديث التالي: فلقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود[1] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**ستكون هجرة بعد هجرة، فخِيار أهل الأرض ألزمُهم مُهاجَر إبراهيم، ويبقى في الأرض أشرار أهلها، تلفِظُهم أرَضوهم[2]، وتَقْذَرُهُم[3] نفْسُ الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير**).

ويظهر لي أن قوله: (.. **ألزمهم مهاجر إبراهيم**..)، لا يخرج عن معنى الرباط الذي نحن بصدده، فلقد نقلت في فقرات سابقة عن ابن

---

(1) رواه أبو داود عن ابن عمرو، والحاكم عن أبي هريرة، صححه الألباني رحمه الله تعالى، يُنظر: صحيح الترغيب والترهيب، (194/3، ح:3091).

(2) تلفظهم أرضوهم: أي تقذفهم وترميهم، يقال: قد لفظ الشيء يلفظه لفظا إذا رماه.

(3) تقذرهم: تكرههم، وقال الخطابي: تأويله أن الله يكره خروجهم إليها ومقامهم بها؛ عن عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، (114/7).

فارس في معجم مقاييس اللغة قوله: "ومن الباب الرباط: **ملازمة ثغر العدو**.."[1]، وفي فتح الباري للحافظ ابن حجر عند شرحه لِبابِ فضل رباط يوم في سبيل الله من أبواب صحيح البخاري، يُعرّف الرباط بأنه: "..**ملازمة المكان** الذي بين المسلمين والكفار.."[2]؛ وتقول الموسوعة الفقهية الكويتية: "الرباط والمرابطة: **ملازمة ثغر العدوّ**، وأصله: أن يربط كل من الفريقين خيله، ثم صار **لزوم الثغر رباطا**.."[3]؛ ويقول الإمام السندي في شرحه لحديث (**من رابط**..): "**من رابط**: **أي لازم الثغر**"[4]، وهكذا يحصل لنا من مجموع ذلك أن الملازمة للثغر هي ذاتها رباط، أو تعبير آخر عن الرباط.

---

(1) معجم مقاييس اللغة، (478/2).

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، كتاب الجهاد، (101/6، ح: 2892).

(3) الموسوعة الفقهية، إصدار: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، (ج76/22).

(4) حاشية السندي على سنن النسائي، مطبوع بهامش سنن النسائي، (243/6).

وفي تبيانه ﷺ أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، إيحاءٌ أن مُهاجَر إبراهيم تستحق أو تحتاج إلى هذه الملازمة، ولقد كشفت مسيرة التاريخ سر هذا الحض على التزام مُهاجَر إبراهيم، وهو أن هذا المكان ساحة صراع مرير، ولا بد لساحة الصراع المرير من مكث طائفة من المسلمين فيها، لأداء دورهم في حمايته وحماية الإسلام فيه، وحماية هويّة الأرض والشعب، وهذا في نظري تعبير عن الرباط.

إنني أريد أن أقول: إن لزوم مكانٍ ما هو رباطٌ، أو هو تعبيرٌ آخر عن الرباط، والحديث حينما نصَّ على أن خيار أهل الأرض هم أكثرُهم التزاما بمُهاجَر إبراهيم، فإنه يعني فيما نحن فيه: أن خيار أهل الأرض هو أكثرُهم مُرابَطةً لُمهاجَر إبراهيم.

أرجو أن يبقى هذا التعبير الآخر عن الرباط في ذهن القارئ الكريم، إذ سيحتاجه البحث في صفحاتٍ قادمة بإذن الله تعالى.

هل يكون المرابط مرابطا وهو في بلده ومنزله

الجواب: نعم، **إذ لم يَرِد في النصوص ما يمنع من ذلك**، فيبقى معنى الرباط سابحا في فضائه اللغوي فحسب، وفضاؤه اللغوي لا يقيّد الرباط بقيد خروج الإنسان من بلده، غير أن ثمة رؤىً واجتهاداتٍ فقهية، سيعرفها القارئ الكريم إن شاء الله..

يقول ابن النحاس الدُّمياطي: ((وقد ضعّف مالك رحمه الله أمر الرباط بجدّة، لأن العدوّ إنما نزل فيها مرة واحدة، وقد سئل مالك عن سكان الثغور والسواحل بالأهل والولد فقال: ليسوا بمرابطين، وإنما الرباط لمن خرج من منزله متعمّدا للرباط في موضع الخوف.

قال المؤلف ابن النحاس الدمياطي عفا الله عنه: والذي يظهر لي والله أعلم **أن من كان ساكنا بثغر لا يربطه فيه إلا توقع الجهاد أو قصد الحراسة، ولو شاء أن يرحل عنه لرحل من غير مشقة عليه في الرحيل؛ أنه مرابط وله أجر الرباط، وإن كان معه أهله وولده،** بشرط أن يكون لو عُرض عليه زوجة أجمل من زوجته، أو سبب

أوسع من سببه أو غير ذلك بمكان ليس بثغر، لما خرج من الثغر رغبة فيما عُرض عليه فإنما الأعمال بالنيات.

وما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين، يسكنون الثغور بأهلهم وأولادهم بنيّة الرباط، ولعل مالكا رضي الله عنه إنما يعني بذلك من وُلدوا بالثغور، ونشأوا بها، وكانت إقامتهم فيها لوجود أهاليهم وحبا لأوطانهم، وغبطة بما هم فيه من الأسباب والأنشاب[1]، من غير قصد لهم في الرباط، لأنه قد أجاز خروج الرجل بأهله إلى الرباط..

ثم نقل ابن النحاس الدمياطي عن مالك قوله: "**ولا بأس بأن يخرج الرجل بأهله إلى الرباط، قال سحنون: إلى المواضع المأمونة الكثيرة الأهل..**"[2]؛ وقال الحافظ ابن حجر: "قال ابن التين: بشرط أن يكون غير الوطن، قاله ابن حبيب عن مالك، قلت [القائل هو ابن

(1) الأنشاب: جمع نشب، وهو المال والعقار.

(2) مشارع الأشواق، مرجع سابق (1/408-409)

حجر]: فيه نظر في إطلاقه، **فقد يكون وطنه وينوي بالإقامة فيه دفع العدو**، ومن ثم اختار كثير من السلف سكنى الثغور..»[1].

ولا أرى ما قيّد به الإمام مالك الرباط —فيما ذكره عنه ابن النحاس والحافظ ابن حجر– قيدا يلزم اتباعه؛ **فالشرع أمر بالرباط، ولم يقيّده بوجوب حصوله خارج الوطن، أو بعيدا عن الأهل والولد؛ بل الأحرى بمن هو في رباط أن يجمع أسباب الاستعداد لمواصلة الرباط، دون أن يرهقه عنه شوق أهل أو ولد أو حاجة مال**، وإنما تتحقق حالة الاستعداد هذه في حال كونه بين أهله وفي بلده أكثر من تحقُّقِها وهو بعيد عنهم، ويومها يكون أكثر استعدادا للحراسة واستمرارا للرباط..

خاصّة مع تحوُّل معنى الثغور من حدود الوطن، إلى داخل الوطن نفسه، كما هو آتٍ بإذن الله تعالى.

ثم لست مع الإمام ابن النحاس الدُّمياطي في قوله الذي سقته قبل قليل: «بشرط أن يكون لو عُرض عليه زوجة أجمل من زوجته، أو سبب أوسع من سببه أو غير ذلك بمكان ليس بثغر، لما خرج من الثغر

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (101/6).

رغبة فيما عُرض عليه»؛ **فإنه ليس في أدلة الشرع ما يحرم المرء من ثواب الرباط إن نوى الرباط في مكان ما، ونوى معه أنه سيترك هذا المكان إن عُرضت عليه في غيره زوجة أو حال، خير من زوجته أو حاله، لم يرد في أدلة الشرع أنه يُحرم أجر المرابطين، بل غاية ما في الأمر أن من نوى مثل هذه النية، فإنه يزول عنه وصف الرباط حين يُنفّذ فعلا ما قد نوى، لا حين ينويه..**

فمعظم المرابطة صبر ومصابرة، **وليس في الشرع أنه من صبر لأمر ما ونوى أنه إن وجد مخرجا خرج منه، أنه يزول عنه وصف الصبر، بل هو صابر وله أجر الصابرين،** وإنما إن وَجَد مخرجا وخرج، فإن أجر صبره يُحسب له حتى الساعة التي سبقت المخرج الذي وجده.

كيف لا والحال أن الرباط ممزوج بكل ما في الجهاد من تربّص وتخوّف وتوقّع لعدوان تتزلزل منه النفوس؟!

وأحسب أن المرابط ما نال من أجر الرباط الذي سنتعرّف عليه قريبا إن شاء الله تعالى؛ إلا لما يناله من شدةٍ واقعةٍ أو متوقعة؛ بسبب تربّص الأعداء، وهو يحمل همّ إسلاميةِ وعروبةِ أرضِه وأهله ونفسه

ودينه، **وهو يرى عواصف نار الأعداء تُحملق به متربّصة، لتهوي عليه بشظاها، وتُرسل إليه بشررها، وهو في كل ذلك ممتلئ خوفا على نفسه وعلى صبية صغار، ونساء وشيوخ، ومجتمع آمن، ومع ذلك يُصرّ على البقاء.**

وهو ينظر أمامه وخلفه، فذا بريق في الغرب يخلب الأنظار، يقول له: تعالَ، فها هنا أمن وأمان، وترف وبُنيان؛ وها هنا جامعة تُنعم عليك بالمناصب، ومركز بحث تنال فيه أعلى المراتب، **ويسكب عليك أوصافَ الجَمال**؛ وها هنا مصنع وورشة عمل، فلا خوف ولا وجل، فتعالَ تعالَ..

وذا بريق من أرض العرب، يدعوه صباح ومساء، ويُمثِّل له بنجاح فلانٍ وعلان، يقول له: دعك من بؤس فلسطين، وتعالَ إلى الملايين!

ماذا سيسمّى اختيارُه فلسطينَ الممتحنةَ القائظةَ، محافظةً على إبقائها مسلمة عربية، أو محافَظةً على ما تبقّى فيها من معاني الإسلام والهويّة والعروبة؛ ماذا سيُسمّى اختيارُه لفلسطين والحال على ما تبين، رغم أنه يُدعى إلى البريق خارجها صباح مساء؟

ليس لمثل هذا الحال من تسمية إلا تسمية الرباط، فصاحبُها مرابط وله أجر المرابطين بإذن الله تعالى..

إن ربط الأرض بمعاني العروبة والإسلام، بعد محاولات مسخ الهويّة؛ وإن إعلاء شأن الإسلام فيها، رغم محاولات طمس نورِه؛ وإن الثباتَ في الأرض المقدسة، رغم مخالب الفقر فيها، ورغم مجالب الرزق في غيرِها؛ وإن الصبر في هذه الأرض، رغم التهديد بقطع العون البشري الناقص أصلا عنها؛ وإن بثّ معاني العزة في أهلها تصبيرا لهم على المُكث فيها رغم غيظها وقيظها؛ **إن كل هذا الذي مضى رباطٌ من الرباط؛ ولم تأتِ نصوص تمنع وصفَه بالرباط، ولم تُعرَف أصولٌ تحول دون دخوله في عالَم الرباط**؛ ذلك أن الرباط لا يعني أكثر من معناه اللغوي الذي تقدّم شرحه، **وهو اللزوم بمكان ما!**

إنه ما أعنيه بالرباط، **وليس ثمة نصٌّ يُخرج هذه الأحوال عن وصف الرباط**، ومن ملَكَ حُجّةً بخلاف ما أقول، فلْيأتِ بها!

أفلا يرى القارئ إذن أن حالا كهذا الحال يستحق صاحبه فضل الرباط، بغض النظر عما صادف نيّته من توجّه إلى الاستراحة فيما بعد

الرباط، لإفساح الباب أمام جيل من المرابطين الجدد، ما دام فؤاده عازما وبإخلاص على مواصلة الرباط مُدة بقائه في أرض الرباط[1]؟

والرباط ليس بمثل فريضة الجهاد[2] التي ترتفع إلى مستوى فرض العين على جميع الأمة أحيانا، وهي في سائر الأحوال فرض كفاية، أما الرباط فهو ليس من فروض الأعيان على جميع الأمة، ولا في في حال من الأحوال، وغايته أنه من فروض الكفاية، حسَب ما يكون من ظروف وأحوال ومن توقع واقتدار، وقد يصل إلى أن يكون فرض عين

---

(1) وعند الشافعية أنه يستحب لمن دخل المسجد أن ينوي الاعتكاف ما دام فيه، وهذا يعني أنه لو كان في نيّته أن يخرج من المسجد بعد ساعة فإن اعتكافه صحيح، ورغم أن هذه المسألة بعيدة عن موضوعنا، إلا أن لها به شبها، خاصة أن الاعتكاف يتضمن غالبا الصلاة التي سمى الرسول انتظار الواحدة تلو الأخرى منها: رباطا.

(2) أُرجّح قول من قال من الأئمة أن الرباط أفضل أجرا من الجهاد لما سنراه من الأحاديث التي سأسوقها في حينه إن شاء الله، لكن الإمام أحمد يرى أن الجهاد أفضل أجرا؛ لما فيه من شدة وعنت، كما قد نقلت عنه، فإنه يقول: ليس يعدل الجهادَ عندي والرباطَ شيءٌ، والرباط دفع عن المسلمين وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو؛ فالرباط أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعنت والمشقة، كما نقل ابن قدامة في المغني على متن المقنع، (370/10).

على القائم بالرباط فعلا، في حال أنه إن تخلف عنه سَبَق العدوّ فاستولى على الأرض.

فأنى يكون ما يمكن أن يرتفع أحيانا إلى فرض العين على الأمة جميعها؛ أنى يكون ثواب هذا الفرض باقيا، رغم نيّة المجاهد أن يعود إلى أهله بعد حين، رغم استمرار حالات الغزو في قديم الزمان؛ ولا يكون هذا الثواب حاصلا لمن نوى أن يتحوّل عن الرباط إلى مكانٍ آخر لا رباط فيه؟!

ولقد كان الغزاة والمجاهدون يجاهدون حينا ويرجعون إلى أهليهم حينا، وإنما يرجعون إلى بيوتهم وزوجاتهم، وتجاراتهم وأراضيهم، ولم يُذهِب ذلك عنهم فضل الجهاد، **فكيف يَذهب فضل الرباط في مثل هذا الحال بمثل هذه النية، وهو أقل شأنا من حيث الفرضية من الجهاد؟**

غاية ما في الأمر، أن المرابط الذي هذا حاله، وتلك نيته، ينال فضل الرباط ما دام مرابطا، فإن ترك الرباط، **فإن ما ناله من أجر يُحفظ له عند ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا**، لكن يفوته فضل الموت مرابطا إن مات في غير رباط.

وإنما أقول هذا، لأن ثمة تفريقا بين من رابط فترة من الزمن، ثم تحوّل إلى غير أرض الرباط فمات فيها، وبين من رابط ومات في أرض الرباط بنية الرباط؛ يدلنا على ذلك ما سأذكره مما رواه مسلم والنسائي مرفوعا: (**رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأُمِنَ من الفُتّان**)[1]، فإن هذا الحديث **يجعل لمن رابط يوما وليلة أجرا هو خير من أجر صيام شهر وقيامه، بخلاف ما يجعله لمن مات مرابطا، من جريان عمله بعد موته**..إلخ.

ويُفهم من الحديث إمكانية أن ينوي المرابط تحديد مدة رباطه بيوم وليلة، فهو ﷺ قد بيّن أن له أجرا عظيما، وهو أجر صيام شهر وقيامه، **دون أن يشترط** ﷺ **ألا ينوي الذهاب إلى أهله أو تجارته،** ليكون مستحقا أجرَ الرباط وفضلَه، فهو يحصل على هذا الثواب، حتى لو نوى العودة بعد هذا اليوم وهذه الليلة من الرباط.

---

(1) مسلم في الإمارة، (381/3، ح: 1913)، واللفظ له، والنسائي في الجهاد (3167) والترمذي، يُنظر صحيح الترغيب والترهيب، (65/2).

ثم، إلى أين يذهب بعد اليومين اللذين رابطهما؟ لا شك أن الأهل والبيت والمال، كل أولئك أول ما يخطر ببال الإنسان أن يرجع إليه، **فأنى لمن يقول باشتراط عدم نية عودة المرابط إلى أهله لينال فضل الرباط، والحديث نفسه يجعل الفضل لمن رابط ولو مدّة يوم وليلة فحسب، والحال أنه سيرجع إلى أهله بعد رباطه القصير زمانا!**

نعم، إن من نوى دوام الرباط أعظم أجرا وأحسن نوالا للفضل كما قد قلنا، ممن نوى الذهاب إلى حال دنياه وأهله وحياته، **فكما يتفاوت أصحاب الأعمال، فإن أرباب النيّة أيضا يتفاوتون.**

وأفهم من كلام أستاذي الشيخ عبد الحميد طهماز –الآتي قريبا– ما يُمكن أن يكون مؤيدا لكلامي، فهو يرى –ولا أرى في قوله بُعدا– أن كل من نوى الرباط فهو مرابطٌ ولو كان بين أهله وفي عمله، **بسبب تطوّر أساليب محاربة الإسلام في عصرنا، وبسبب تعرّض كافة المسلمين لسلاح الأعداء**؛ فلقد ملك الأعداء من السلاح ما بإمكانه أن يبلغ بناره جميع المسلمين، مجاهدين وغير مجاهدين.

كيف يكون الرباط في عصرنا؟

وبما أننا قررنا تعريفا للرباط قد لا نجده في كتب السالفين من الأئمة رحمهم الله تعالى، وبما أنه تبيّن لنا أن الرباط ليس من الأسماء الشرعية الملزمة بتعاريف اصطلاحية محددة، فإننا نرى فوق ذلك كله أن شكل الرباط خاضع للمتغيرات، ما دام جوهره سالما عن الانتقاص والانتقاض.

وإن السلاح الذي كان متوقّعا استخدامه ضد الأمة فيما مضى من تاريخها، قاصر في قُدراته على مستوى محدود، ليس من شأنه أن يصل إلى جريمة ووحشية التدمير الشامل، الذي تميز به سلاح عصر التقدم العلمي في عصرنا، وليس من شأنه أيضا الوصول إلى من يريد العدو الوصول إليه، أينما كان.

وسلاح كسلاح أمم الأرض قديما، لا يجعل جميع الأمة تحت جبروته ونيرانه؛ فإن نيرانه قاصرة ومحدودة، وإن إطفاءها ميسور، لكن نار أسلحة اليوم على خلاف ذلك كله، فهل يمكن أن يتغير

شكل الرباط تبعا لاختلاف قدرات الأسلحة المستخدمة في الحروب؟

الذي أميل إليه: أن نعم؛ فالمستهدَف الصابرُ المصابرُ المصرُّ على عقائده الإسلامية وحقوقه المسلوبة، رغم تعاظم التحدي، وقلة الإمكانيات؛ **إن كان يملك نيّة الرباط فإنه ينال ثوابه بإذن الله تعالى، حتى ولو كان بعيدا عن مناطق الثغور**، وذلك بسبب ما ذكرناه من قدرة أسلحة العصر على الوصول إليه متى شاءت، ولا فرق في تقديري بين من مكث في الثغور مرابطا، يجعل نفسه أمام سلاح الكافرين المتوقع في كل لحظة، وبين من كان هذا حاله تماما، رغم كونه في عمق وطنه.

وهذا ما يراه الدكتور أحمد شلبي في كتابه العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، ويضيف بعد أن يذكر تطوّر السلاح في عصرنا، سواءٌ سلاح الغزاة أو سلاح المجاهدين، يضيف فيقول: "وبهذا ينفسح شأن الرباط الآن، فيشمل كل الذين يقفون موقف الاستعداد لحماية

البلاد والدفاع عنها، سواء كان موقفهم على الحدود أو في أي موقع من موقع الدفاع والحماية))[1].

ويقول أستاذي الفقيه المفسر الشيخ عبد الحميد طهماز حفظه الله تعالى في سلسلة تفسيره الموضوعي لسور القرآن الكريم في الجزء الخاص بسورة آل عمران، والمسمى: التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران، يقول: ((والجدير بالذكر أن تطوّر أساليب الحرب وأنواع الأسلحة، جعل بلاد المسلمين معرّضة للخطر مهما كانت بعيدة عن بلاد الكفار، **وأصبح كل مسلم في أي موقع من مواقع عمله في رباط، إن عزم عليه ونواه، وقصد بعمله وجه الله تعالى**))[2].

(1) العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، للدكتور أحمد شلبي، (154).
(2) التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران، وهو الجزء الثالث من سلسلة التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، تأليف أستاذي الشيخ عبد الحميد طهماز، حفظه الله تعالى، (179).

بل إن الدكتور محمد روّاس قلعه جي[1] يرى أكثر من ذلك، وهو الرجل الفقيه المُعتبر، إنه يرى أن الذين يلاحقون شبهات الكفار، ويكشفون زيف دعواهم، إنهم عنده مرابطون، لأن الواحد منهم في حقيقة الأمر قائم على ثغر من ثغور الأمة، ينافح عنها ضدّ أعدائها، وكنا قد قرأنا تعريفه للرباط في صفحات مضت، وفي توسُّعه في مجال الرباط تعليقا منه على تعريفه له يقول: ((**وعلى هذا فإن المرابطة قد تكون في الثغور، وقد تكون خلف أجهزة الإنذار المبكّر المنصوبة بعيدة عن الثغور أو في عواصم الدول، وقد تكون في تتبُّع طعون الكفار في الإسلام والمسلمين بغية تفنيدها والردّ عليها**))[2].

(1) الدكتور محمد روّاس قلعه جي عالم كبير، وغزير الإنتاج، أخرج للمسلمين فقه الأئمة رحمهم الله؛ فأخرج فقه كبار فقهاء الصحابة، كأمثال عمر وابنه، وأبي بكر وعثمان وعلي وابن مسعود وعائشة، وأخرج فقه ابن تيمية وسفيان وابن جرير والنخعي، وسواهم من العلماء والصحابة، أخرج مجلدا فخما لمعظم هؤلاء، ولبعضهم مجلدين، كموسوعة فقه الحسن البصري، وموسوعة فقه ابن تيمية، وطبعت هذه الذخائر الفقهية الكبرى: دار النفائس ببيروت، فهو عالم غزير الإنتاج، واسع الاطلاع.

(2) الموسوعة الفقهية الميسّرة، تأليف الدكتور محمد روّاس قلعه جي،

بعد هذه الرؤية لامتداد مفهوم الرباط عند الدكتور قلعه جي، فإنني أرى أن الأقرب أن يقال: **إن مفهوم الرباط لم يتغيّر، بل إن مفهوم الثغور هو الذي طرأ عليه تطوّر**، فبقي ارتباط المرابطة بالثغور قائما على المتعارف عليه، **مع تغيُّرٍ في مفهوم الثغر نفسه، فهو الذي ناله شيء من التوسّع**؛ فبعد أن كان الثغر سابقا هو منطقة الحدود الفاصلة بين دولة الإسلام وجارتها المحاربة لها، بسبب طبيعة السلاح المُستخدَم الذي لم يكن يتجاوز الحدود بين الدول فيما مضى من الزمان، **فقد صار الثغر الآن شاملا لا مناطق الحدود فحسب، وإنما كل بقعة يمكن أن يصل إليها كيد الأعداء**، بسبب تطوّر السلاح اليوم، بحيث صار قادرا على اقتحام عُمق الدولة الإسلامية، فمفهوم الثغر حاليا غير خاضع لمفهومه السابق، المرتبط بمناطق الحدود، بل هو خاضع لقدرات السلاح المتطوّر في كل عصر.

مع ملاحظة أن الثغر ليس جزءاً أساسيا من تعريف الرباط، بل جزؤه الأساسي هو: الملازمة؛ وإنما يفرض هذه الملازمةَ شكل الصراع، ومن شكل الصراع في أرضنا فلسطين: الصراع على هوية الأرض،

.(931/1)

فمن قام فيها بحقّ الإسلام والعروبة، فأسهم ببقائه فيها في ترسيخ عروبتها وإسلامها، فهو مرابط إن شاء الله تعالى..

إن طبيعة الصراع تُلقي بثقلها في تفسير كثير من المعاني، وإن التفسير الفقهي القديم ينطلق من أجواءَ منسابةٍ حينما كان يُسيطر على أبواب الرباط في كتب التراث الإسلامي.

هذا، وفي إدخال الدكتور محمد روّاس قلعه جي للمنافحين عن الإسلام في مجالات الفكر والمعرفة، في إدخاله إياهم في المرابطين، معنى حريّ بالنظر فيه، إذ من عرف فضل العالِم الداعية، عرف إمكان قبول رؤية الدكتور قلعه جي هذه.

أجر الرباط والمرابطين مستمر وغير منقطع

فماذا نرى في أجر الرباط؟ إننا نرى عجبا؛ وهذا العجب كامن في حِكمة الوحي الرباني، ممثلا بالقرآن والسنة، في قدرته المشهود لها على إثارة الطاقات الداخلية عند الإنسان، وفي قدرته الهائلة على ترسيخ حشود من المعاني النفسية لتحقيق الأهداف والغايات العالية.

إنها قُدرة الوحي الهائلة في صياغة طموحات وآمال جديدة لم تكن من قبل؛ وفي صياغة غايات جديدة للنفس، تسمو بها على قاذورات ملأت الدنيا بقرفها؛ فأول ما يلفت نظر الناظر في أجر الرباط، هو استمرار أجره في حال موته مرابطا، وهذا ثابت في أحاديث متعددة، نذكر منها حديثا واحدا، لِما فيه من الكفاية.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والنسائي مرفوعا: (**رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأَمِنَ من الفُتّان**)[1]، ومنه

---

(1) مسلم في الإمارة، (3/381، ح: 1913)، واللفظ له، والنسائي في الجهاد، (6/346، ح: 3167)، ويُنظر صحيح الترغيب والترهيب،

يتضح أن الرباط ذو فضل خاص لا يشركه فيه عمل من الأعمال، وذلك أن المرابط يبقى –رغم موته– كما لو كان مستمرا في رباطه، ينال أجره باستمرار، ما دام قد مات في حال الرباط؛ **وكأن المقصود من وراء ذلك أن يتخوّف المرابط نفسه في حال تركه الرباط من أن يموت بعيدا عن هذا العمل العظيم، فيدفعه ذلك إلى أن يبقى مرابطا**، ولو ظن أنه لا حاجة إلى رباطه، حرصا منه على أن يموت في حال مزاولته الرباط، لينال الأجر مستمرا إلى يوم القيامة.

وهكذا، فالناظر في أجور الأعمال الصالحة يكاد يقطع أن أجر الرباط وفضيلته تتفوقان على كل ما سواه من أجور الأعمال الصالحة الأخرى، وذلك بعد فوز المسلم بنعمة الإيمان.

ذلك أنه لم يَرِد أن المسلم إذا مات، سَعِدَ باستمرار عمله وعدم انقطاعه، وكأنه لا زال فيه رغم موته؛ لم يرد هذا الفضل لشيء من الأعمال الصالحة إلا للرباط.

وأما ما ورد في الصحيح من قوله ﷺ: (**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علمٍ يُنتَفَع به، أو**

.(65/2)

ولدٍ صالح يدعو له)[1]، فإنه –أي هذا الحديث الشريف- لا يُعكّر علينا ما نحن فيه؛ فهذا الحديث يطرح موضوعا آخر تماما، غير ما نحن فيه؛ إنه يربط بقاء الأجر ببقاء أعيان هذه الأعمال الصالحة المذكورة فيه، فإن فنيت هذه الأعمال، فليس ثمة ما يدلّ على بقاء الثواب من نَصّ الحديث، أي إنه يدور حول أعمال صالحة بقيت ذواتها موجودةً، فلم تَزُل بزوال أربابها، بل إن أعيانها ماثلة، فصاحبها ينال فضلَ هذه الأعمال لبقاء شُخوص ذواتها، ولاستمرار وجود أعيانها، رغم موت أصاحبها، **فإن زالت هذه الأعمال، فلا دلالة في الحديث على دوام الأجر واستمراره؛** بخلاف أجر المرابط إن مات في رباطه.

فغاية ما في الأمر أن انقطاع أجر هذه الأعمال لا يكون بموت أصحابها، بل بزوال أعيانها، فلو بقيت بعد موت أصحابها مائة ألف عام، أو إلى يوم البعث، فإن أجرها يبقى مستمرا ما دامت أعيانُها موجودة، فإن زال عينها انقطع أجرها ولو بعد موت صاحبها بيوم واحد؛ هذا ما نفهمه من هذا الحديث، وهو ما يظهر من كلام الحافظ

---

(1) رواه مسلم، (110/3، ح: 1631)، ويُنظر صحيح الترغيب والترهيب، (149/1).

عبد العظيم المنذري عند ذكره هذا الحديثَ، فقد قال: "وناسخ العلم النافع له أجره، وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده، **ما بقي خطّه والعمل به**، لهذا الحديث وأمثاله"[1]، أي أن من زال خطّه في العلم، أو مات ولده، أو ذهبت صدقته، فإن الأجر لا يدوم، وهذا الذي قدّمته هو ما يمكن أن يفهمه القارئ من كلام الإمام القرطبي في تفسيره، قال: "فإن الصدقة الجارية والعلم المُنتفَعَ به والولد الصالح الذي يدعو لأبويه؛ **ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد**"[2].

فالصدقة الجارية، كحفر بئر في طريق المسافرين، فإن البئر ما دام موجودا، فأجر صاحبه المتبرّع بحفره مستمر رغم وفاته، فإن هُدِم البئر مثلا أو زال أو طُمس أو نضب معينه أو غار ماؤه؛ فإن هذه الصدقة

---

(1) صحيح التغريب والترهيب، (149/1)، ولكلام الحافظ المنذري هذا تتمة، أذكرها لما فيها من فائدة، فلقد قال مُتِما كلامه الذي نقلته: "..وناسخُ غير النافع مما يوجب الإثمَ، عليه وزرُه ووِزرُ من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده، ما بقي خطُّه والعمل به، لِما تقدم من الأحاديث: **(من سن سنة حسنة..)**، أو: **(سيئة)**. والله أعلم".

(2) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، (325/4).

لم تَعُد جارية؛ رغم طمع المؤمن بدوام فضل الله تعالى، لكننا نتحدّث هنا عن الموعود في الحديث الذي نحن بصدده، لا عن عظيم فضله سبحانه الذي لا يزول طمع المؤمن فيه أبدا؛ وكذلك الولد الصالح الذي يدعو لأبيه، فإن موت هذا الولد، أو نسيان أبنائه لجدّهم، بسبب فسادهم أو انشغالِهم، أو تَماوتِهم عن الدعاء له؛ كل ذلك يحول دون استمرار الأجر؛ حيث إن ذات العمل قد زالت، بما طرأ من موت الولد أو فساد الذرية عياذا بالله سبحانه؛ وكذلك فالعلم الذي يُنتفع به، يبقى أجره مستمرا ما دام هذا العلم باقيا؛ ممثلا بكتاب أو مسائل تنفع المسلمين، فتح هذا العالم أو ذاك آفاقها أو حقّق مسائلها؛ يبقى الأجر مستمرا رغم وفاة صاحبها المؤلِّف لها والناشر فيما إذا كان يقصد نشر العلم لوجه الله تعالى؛ وذلك ما دامت المسألة أو الكتاب، أو ما دامت النصوص المنقولة من هذا الكتاب موجودة بين ظهراني المسلمين، حسب ما يُمكن أن يُفهم من هذا الحديث؛ فإن زال الكتاب أو احترق، كما حصل لكثير من تراث المسلمين في الأندلس وأيام حرب التتار؛ فإن الأجر سينقطع بسبب زوال ذات العمل، كما هو واضح في كلام القرطبي والمنذري.

أما ما في نفس المسلم من طمع باستمرار الأجر على هذه الأعمال، رغم ذهاب أصولها أو فروعها أو ذواتها، فإنه من نوع الرجاء بفضل الله تعالى، وهو غير مختص بهذه الأعمال، وهو غير داخل في مفهوم الحديث دخولا كليا؛ غاية ما في الأمر أن يُكرم الله الصادقين بصدقهم رغم زوال ذوات أعمالهم.

وهذا كلّه بخلاف ما نحن فيه من فضل الرباط؛ فإن ذات عمل المرابط قد زال بموته، وانقطع وانتهى بانتهاء أجله، لكن أجره يبقى مستمرا، يُمِدّ صاحبه بعظيم الأجر، كما لو كان صاحبه حيا قائما فيه؛ وذلك كله مشروط بالموت في حال الرباط.

وهذا بلا شك يختص بالرباط وفضله ومترلته وحده دونما سواه من الأعمال؛ فلو مات المسلم أثناء رباط ليلة واحدة رابطها؛ فإن الحديث يبشره بالفوز بكل ما ذكرنا، أي بدوام ثوابه على عمله، واستمرار ورود أجره عليه كما لو كان حيا قائما فيه؛ رغم موته، وانقطاعه عمليا عن الرباط بسبب مداهمة الموت، ورغم زوال ذات العمل الذي عمله، بزوال العامل نفسه.

المرابطون في الحديث النبوي

والأحاديث النبوية أفسَحُ بكثير من القدرات البشرية على جمعها، أو على جمع كل ما ورد منها في باب من الأبواب، ولذا فليس من مقصدنا حصرُ جميع الأحاديث الواردة في الرباط، بل أن نُسدّد ونُقارِب..

لقد ورد في الرباط وأجره وفضله مجموعة من الأحاديث التي تكفل خلع المسلم الصادق من خلوده إلى الأرض، لتحوِّل نظره إلى ما عند الله في جنته.

فمن هذه الأحاديث ما ذكرناه مما رواه مسلم والنسائي(1) مرفوعا: (**رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأُمِنَ من الفُتّان**)، وقد نقل ابن النحاس الدُّمياطي عن القاضي عياض قوله: رواه

---

(1) مسلم في الإمارة، (381/3، ح: 1913)، واللفظ له، والنسائي في الجهاد، (346/6، ح: 3167)، يُنظر صحيح الترغيب والترهيب، (65/2).

الأكثرون بضم الفاء، جمع فاتن[1]، ورجح الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى رواية الضمّ هذه في صحيح الترغيب والترهيب[2] له مستندا إلى رواية الطحاوي للحديث نفسه في مشكل الحديث وهي: (**وأمن فُتّان القبر**)، واستند إلى قوله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن فَضالة بن عُبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه يُنمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤمَنُ من فتنة القبر**)[3].

وبإمكان المسلم أن يستحضر في عقله ونفسه، وفي كل كيانه؛ أجر صيام شهر كامل وقيامه، ليتعرف على عظمة رباط ليلة واحدة؛ إذ هي خير من صيام شهر كامل وقيامه، مع ما لهذا الصيام والقيام من أجر عظيم.

---

(1) مشارع الأشواق، (369/1).

(2) صحيح الترغيب والترهيب، تأليف الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني، رحمه الله تعالى، (65/2) الحديث رقم (1227).

(3) المرجع السابق، حديث رقم (1218).

ولقد روى النسائي والترمذي وقال حسن غريب عن عثمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**)[1]، ورواه أيضا ابن ماجه غير أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من رابط ليلة في سبيل الله كانت كألف ليلة صيامِها وقيامِها**)[2].

ويرقى فضل الرباط في سبيل الله تعالى أكثر، ويرتفع درجة أعلى، وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي أيضا أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**)[3]، وقد ذكر أبو هريرة هذا الحديث حينما كان

---

(1) النسائي في الجهاد، (3169)، والترمذي، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (1224)، وكذا رواه الدارمي في الجهاد، (211/2)، وأحمد، (75/1)، والترمذي في الجهاد، (1667).

(2) ذكرها الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (1224).

(3) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (463/10) وقال محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

في رباط، ففزع مَن حوله إلى الساحل، وأبو هريرة واقف فسُئل عن وقوفه، فقاله، ولقد صحح الألباني رحمه الله تعالى هذا الحديث[1].

ويجعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أجر الرباط أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة، فقد قال ناقلا رؤى الأئمة في الفتاوي: "**المقام في الثغور بنية المرابطة في سبيل الله، أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة**[2] **باتفاق العلماء**"[3]، ونقل الإمام ابن تيمية قول أبي هريرة رضي الله عنه: (**لأن أرابط ليلة في سبيل الله، أحب إلي من أن أقوم ليلة عند الحجر الأسود**)[4]، وقال تعليقا: "**وذلك أن المرابطة من جنس الجهاد، والمجاورة من جنس الحج، وجنس الجهاد أفضل**

(1) صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم (1223).

(2) يقصد: المسجد الحرام، والنبوي، والأقصى.

(3) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز. (ج26/27).

(4) مر بنا قريب من هذا الحديث مرفوعا إلى رسول الله ﷺ برواية أبي هريرة نفسه، وقد صححه الأستاذ الألباني، يُنظر: صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم (1223)، ويُنظر مجموعة الفتاوى لابن تيمية، (ج26/27).

باتفاق المسلمين من جنس الحج))[1]، وذكر ابن تيمية تأييدا لقوله ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قيل له: أي العمل أفضل؟ قال: (**الإيمان بالله ورسوله**)، قيل: ثم ماذا؟ قال: (**جهاد في سبيل الله**)، قيل: ثم ماذا؟ قال: (**حج مبرور**)[2]، وذكر قول الله تعالى: (**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين**)[3].

ويسمو الرباط بأهله أكثر فأكثر..

إن أجر العمل الذي يدوم للمرابط دون انقطاع حين يموت مرابطا، ليس محصورا بأجر رباطه فحسب، **بل هو أجره على جميع أعماله الصالحة**؛ حيث يبقى هذا الأجر مستمرا كما لو كان صاحبه يقوم به فعلا في حياته، فينال بسبب موته مرابطا أجر رباطه مستمرا، وأجر صلاته وصيامه، وسائر أعماله الصالحة، دونما انقطاع أو توقّف.

---

(1) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز. (ج82/27).

(2) البخاري مع الفتح، (466/3، ح: 1519)، ومسلم في الإيمان (95/1، ح: 83).

(3) يُنظر: مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، (ج26/27).

ففي الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان[1]، نقرأ هذا العنوان: ذكر البيان بأن المرابط الذي يجري له أجر عمله إنما هو أجر عمله الذي كان يعمل في حياته من الطاعات، ثم يورد الحديث التالي: (**من مات مرابطا أُجري عليه عمله الذي كان يعمل، وأومِن الفَتان، ويجري عليه رزقه**)، وكأنه في الإحسان فسر قوله: (**عمله الذي كان يعمل**)، على عمومه وشموله لجميع أعماله، رباطا كانت أو غير رباط، من صلاة وصيام وذِكر وبرّ وغيرها، فكأنه وهو في قبره يعمل كل هذه الصالحات التي يعملها، ويصله أجرُها، هذا إذا ما داهمه أجله وهو في رباطه.

واستدلال ابن بلبان صاحب كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن حِبّان صحيح، ذلك أن الحديث ينصّ على أن العملَ الذي يُجرى للمرابط حالَ موته مرابطا هو كلّ عمله، دونما تفريق بين عمل وعمل، فهو يقول: (**أُجريَ عليه عملُه**)، و لم يقل: (أُجريَ عليه أجر رباطه).

---

(1) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، (وهو ترتيب الإمام المُحدث ابن بلبان لصحيح ابن حبان): (485/10).

هذا، ويرتقي فضل الرباط في سبيل الله تعالى إلى آفاق أخرى، فلقد ذكرتُ أحاديث تجعل المرابط آمنا من فتنة القبر، ولا أعود إليها، فيُرجع إليها وهي قريبة، وسأذكر ما يدل على أن المرابط آمِنٌ أيضا من الفزع الأكبر، والأحاديث في ذلك صحيحة متعددة، ومن شأن هذا الأجر والفضل وحده أن يجعل المسلم متشبثا بالمرابطة، **فمن له بضمانٍ وأمانٍ من الفزع الأكبر إن لم يمت شهيدا أو إن لم يمت مرابطا؟ والشهادة غير متيسِّرة للناس، فلا أقلَّ من تيَسُّر الرباط، وهو ميسور خاصة لأهل فلسطين، وهم يعيشون حياتهم الطبيعية، فلو نوَوْا الرباط في حياتهم الطبيعية، فأرجو أن يكون قد نالَهم أجر الرباط، كما بيَّنتُ ذلك.**

روى الطبراني بإسناد رواته ثقات، عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطا في سبيل الله، أمِنَ من الفزع الأكبر، وغُدِيَ عليه برزقه وريحَ من الجنة، ويُجرى عليه أجر المرابط، حتى يبعثه الله عز وجل)**[1]؛ وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله

(1) ذكر الأستاذ الألباني هذا الحديث صحيح الترغيب والترهيب للمُنذري تحت

عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**من مات مرابطا في سبيل الله أُجرِيَ عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأُجرِيَ عليه رزقُه، وأمِنَ من الفُتّان، ويبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع الأكبر**)[1].

وإنما يصحُّ استخدام وسيلة استنفار النفس إلى ما في الرباط من أمان من هذه الأهوال المتمثلة في عذاب القبر وفتنته والفزع الأكبر، في حال كون المؤمن قد بنى نفسه ابتداءً على الخوف منها، فإذا كانت هذه الأهوال قد هيمنت على نفسه، وأقلق الخوفُ منها تفكيرَه، ففي مثل هذا الوضع النفسي يصلح أن يُحَضَّ المرابط على الرباط، وأن يُبشّر بأنه سيأمن من كل هذه الأهوال بسبب رباطه، **أما إذا لم تكن هذه المعاني قد هيمنت على فؤاده، فإن مثل هذه البشائر لا تصلح معه، ولا تعني في توجيه سلوكه شيئا**؛ ولذا فإنني أقترح أن يُؤكّد في نفوس الناس، وأن يُغرز في تفكيرهم الخوف من عذاب القبر وفتنته، وأن يُلقى في قلوبهم التخويف من يوم الفزع الأكبر، ثم إذا خلعَ منهم

الرقم (1219).

(1) ذكر الأستاذ الألباني هذا الحديث في صحيح الترغيب والترهيب للمُنذري تحت الرقم (1221).

هذا التفكيرُ قلوبهم، صلح أن يُبشّروا بما يخلّصهم منه، وذلكم هو الرباط.

إن التربية الإسلامية إحدى المعجزات التي يحقّ للمسلم أن يفخر بها، وأن يعلو بها على نظريات الأرض في دراسة النفس[1].

(1) شرحتُ في كتابي عالَم الأنفس تلك القدرة على تحريك الطاقة البشرية في مجال العمران وسائر مجالات الحياة، وطرحتُ فيه ما يمكن أن يكون تفسيرا جديدا لكثير من قضايا النفس في نصوص الكتاب والسنة، والكتاب حين كتابة هذه السطور في المطبعة.

فلِمَ هذا الأجر العظيم للرباط في سبيل الله؟

الرباط من أعظم الأعمال بل لعله أعظمها؛ فهو جهاد، بل فيه من المعاني ما يزيد بها على الجهاد، وقد أشرت إلى شيء من ذلك من قبل.

لكن كيف يستطيع الرباطُ أن يستقطب المرء من جذور نفسه المشدودة إلى دنياه وجمالها وطموحاته فيها وزينتها، بل كيف تتحوّل طموحاته من الدنيا وما فيها إلى الرباط والثبات عليه، وحُبِّه والاستمتاع به؟

كيف تُعرض عليه الدنيا فيختار خشونتها وشظفها على بريقها ورَبْرَبِها؟

ثم، إذا علمنا أن الإنسان يستمتع بالحركة والسفر والسياحة، ومتابعة تجاراته ومصالحه التي تحتاج إلى الحركة والسفر، وأن المرابط إنسان قد غُرِزت فيه كل معاني الإنسانية، فهو يُحبّ السفر والسير في البلاد كغيره من البشر؛ فإذا به رغم كل ذلك يؤثر البقاء في مكان هو يعلم أن طموحاته الدنيوية فيه مهدورة، وأن سفَراتِه التي قد تضطر

إليها حياته، لن تجد لها إلى الحياة سبيلا، ومع ذلك يُصر ثابتا على الرباط في سبيل الله.

فكيف حصل هذا الانقلاب في نفسه، فترك مطامحها وزينتها وشهواتها إلى المرابطة في أماكن لا تعرف معنى الطمأنينة والاستقرار، بل إن بقاءه فيها مرابطا هو في ذاته لحساب استقرار غيره؛ فغيره ينعم بالاستقرار والأمن الذي تسبب فيه هو نفسه، وهو يعيش بلا أمن ولا استقرار، باختياره ودون إجبار من أحد، بل تراه يندفع إليه اندفاعا عجيبا لا يصده عنه شيء.

كيف حصل هذا الانقلاب في نفسه؟!

الذي أراه أن طموحاته لم تُجتثّ من نفسه ولم تتحطم، وأن أمانيه لم تُبترْ ولم تتعثر؛ فهو إنسان بكل ما تعني هذه الكلمة من معانٍ قد زينتها آمالٌ وأمانٍ وطموحات؛ **إن بؤرة التركيز في طموحاته هي التي تحوّلت، وإن المحور الذي تدور عليه نفسه قد الْتَفَتَ الْتفاتةً أخرى إلى عوالم لا يعرفها أهل القصور المزركشة، والقشور المنمّشة**؛ إن آماله تملأ نفسه، لكن إلى شيء آخر، وإن تحوّلا طرأ عليها جاعلا لها غايات هي أسمى وأعلى، انفتحت لها به آفاقٌ جديدة؛ حيث لم تعُد

أمانيه محبوسة في دنيا زائلة، و لم تعُد طموحاته محاصَرة فيما هو ذاهب بذهابها، بل إن هذه الطموحات قد توجّهت إلى الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم، وفضل عظيم.

إن الذي تتحطم طموحاته هو اليائس البائس، الذي فشل في تحقيق أي شيء منها، فمات قبل الموت ألف مرة، وبات كسير النفس، مُحطّم الآمال، قد اسودّت الدنيا في عينه، فلم يَرَ فيها إلا حظّه العاثر، ونظر إلى بحارها فلم ير منها إلا الأمواج العاتية التي تحطم كل من حاول ركوبها، مُغفلا ما فيها من كنوز وزينة وحياةٍ جميلة؛ وعرّض نفسه لنسيم الرياض فلم ير فيه إلا الهباء المحمول في أنحائه، فأغمض عنه عينيه، وستر عنه نفسه؛ وهكذا يئس من كل شيء ويئس منه كل شيء..

وليس هذا حالَ المرابط الذي توّج أعماله باستمراره في الرباط حتى الموت، ثابتا على أرضه الإسلامية، طامحا إلى ما ينتظره من فوز عظيم على ما هو فيه من الرباط والثبات.

فهو كغيره من البشر، يملك نفسا توّاقة، تغمرها آمال عريضة، وطموحات كبيرة، ولكن إلى ماذا؟..

هذا هو المحك، فإلى ماذا يطمح المرابط، وعلامَ تدور آماله، وإلى أي ناحية تقفز نفسه بتَوَقانِها وعشقها، وعميق تفكيرها؟

إنها تقفز إلى حيث لا ينقطع الأجر وإلى حيث يدوم النعيم ولا يزول..

وما معنى الأجر العظيم الذي يناله المرابط؟

أَتَذْكُرُ عزيزي القارئ الكريم شيئا من الأجر الذي يناله الصائمون القائمون؟

أتَذْكر باب الريان الذي يدخله الصائمون؟ أتذكر من فضل الصوم أنه نصف الصبر، وأن الصبر ثوابه الجنة؟ أتذْكُر ما يناله القائمون بين يدي الله تعالى صلاة وذِكرا وتسبيحا وتحميدا لله تعالى؟!

إن المرابط ينال كل هذا الأجر الذي يناله الصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر شهرا كاملا، **وذلك برباط يوم وليلة**..

فاذكر الفضل العظيم الذي ينالُه الصائم شهرا لا يفطر، والقائم شهرا لا يفتر، **فهو الذي يناله من رابط يوما وليلة، مجرّد رباط، دون**

أن يعمل أي عمل آخر، إنه لمجرّد رباطه ينال هذا الأجر المذكور، وأكثر منه: **يستمر الأجر إلى أبد الآبدين، لو مات وهو في رباطه، ولو لم يقدّم نفسه مجاهدا.**

إنها معجزة التربية الإسلامية، التي تقلب الطموحات، وتحوِّلها إلى ما لا يزول؛ فالذي لا يجاهد، عجزا أو ضعفا، أو قناعة برؤية تمنعه من الجهاد، فأبواب الفضل مفتوحة غير موصدة، إن من لم يجاهد، فليرابط، فالرباط باب الطامعين بفضل الله سبحانه وتعالى، ولا يكلّفه ذلك شيئا، إلا نية البقاء في هذه الأرض المقدسة، التي يحاول نزعها منه، ونزعه منها، أعداؤها وأعداؤه، أعداء الله والإنسان.

إن ذلك لا يكلفه إلا البقاء في أرضه بنية الرباط، ولو لابس ذلك زواجٌ وبناءٌ واقتصادٌ وتعميرٌ، لماذا؟ لأن ديننا دين الحياة، وتكاليفه لا تقتل الحياة.

إنه لأجل تحويل الطموحات إلى آفاق أسمى وأبقى وعوالم أعظم وأفسح؛ لأجل ذلك جاد النص القرآني والنبوي بما يملأ نفس المرابط حُبا لعالم آخر تنعم فيه النفس بأكثر مما تمنّت في دنياها.

فإنَّ تحويل الإنسان من مصالحه الدنيوية إلى قضية كبرى قد تأتي على مصالحه هذه من الأساس؛ إن ذلك لا يمكن أن ينجح إلا بمقابل كبير وأجر عظيم يُحرك النفس إلى ((**مطامع أخرى ذات جاذبية خاصة**))، تَعْظُمُ في نظره حتى يضحي لأجلها بكل مُتع الحياة.

ولذا نرى الحديث النبوي يرفع من منزلة المرابط إلى درجة لا ينالها غيره، ويُجزل للرباط فضلا لا يجعله لسواه، فلِمَ كل ذلك؟

إن الحِكَم من وراء هذا الفضل والعطاء الرباني العظيم كثيرة وافرة، وعلى العقل المسلم أن يكتشف كل يوم منها جديدا، ونذكر هنا من هذه الحِكَم ما قاله الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: ((..**وهذا لأن أعمال البر كلها لا يُتمكّن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرّز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام**))[1].

وهذا يعني أن المرابط، ومثله المجاهد بطبيعة الحال؛ يقوم في الحقيقة بحماية أصل الدين وأهله، فسلامة المسلمين في إقامة شرع ربهم مرهونة بمدى الأمن الذي يُحققه الرباط، ومثله الجهاد.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، (325/4).

غير أنني لا أرى الأمر يقتصر على ما تقدم من الحِكم؛ فشرع الله تعالى غزير الحِكَم، كثير جوانب الخير..

إن المرابط في حقيقة الأمر يجعل من نفسه سِدادا لثغرٍ تراكم حوله تخطيط الأعداء لاقتحامه؛ فهو يجابه في كل لحظة، ولو توقّعا، عدوانا جديدا، وأهوالا من الموت تقتحم عليه مكمنه، أو ساحته، أو أي مكان يسير فيه، فيبقى مع كل ذلك صامدا في أرضه التي يسعى أعداؤه إلى إخراجه منها وإحلال المغتصبين مكانه، ويُخطط الأعداء كل يوم خطة جديدة، من شأنها أن تُزلزل الجبال من مكانها، هدفها إخراجه، وهو ثابت صابر مرابط.

وهو مع كل هذا تدهمه الأصوات من كل جانب، أصوات القذائف والمدافع والدبابات، وصعق الصواريخ، تلك التي يهون معها أزيز الرصاص، وهي تحمل مع هديرها وأزيزها، نارا وسعيرا، للموت والحرق والدمار، تنطلق من عدوان أثيم، وبغي وظلم وحقد دفين.

وهو في كل أحواله هذه، واقع في مواجهة كيد ومكر أعداء الله به، الذين شاءوا أن يجعلوا قتله ممرّا لإحلال غيره من أهل الإباحية والكفر مكانه، أو لقتل أمة تسبح الله وحده، هي أمة الإسلام، أو

لانتهاك حرماتها، أو لكسر هيبتها، أو ما سوى ذلك من نوايا العدوان، وطوايا البهتان.

فهو في صباحه ومسائه، نومِه وصحوِه، سَيره ومُكثِه، رواحِه ولُبثِه؛ يطلبه العدوان واقعا أو متوقّعا، فيتشبّث بحقه، وذلك أدنى درجات الرباط.

إن الأجر الذي يناله المرابط، أعظم من الأجر الذي يناله المجاهد، ذلك الذي أدى أمانة الرجال العمالقة، وجاهد ما كان الجهاد ممكنا، مبتغيا من كل ذلك حماية أمته ودينه ووطنه، وعظيم الأجر والثواب عند الله تعالى يوم القيامة، مع ما يلاقيه في الدنيا من عزة وشموخ تتقاصر أمامه الجبال العالية، وذلك إلى أن يجرّ عدوّهُ أذيالَ الخيبة والذلة، آوياً إلى جحره في بلده الذي قدِم منه؛ وليعود المجاهد عَوْداً ميمونا بما نال من أجر وغنيمة إلى بلده وأهله؛ **إلا المرابط، فهو باقٍ رغم انتهاء المعركة، ليواجه ما يمكن أن يكون من هجمات متوقعة، تدفع إليها دوافع الانتقام والعدوان، أو إحتلالات قادمة تدفع إليها عقائد باطلة وخطط عمياء ماكرة، كما يحصل الآن في العراق.**

فضخامة ما يلقاه الإنسان من شدائد، وهو في خدمة قضايا دينه وأمته، يجعل لأجره في رباطه ما ليس لسواه.

هذا ومن المعلوم أن الأجر على قدر المشقة.

وإذا كان من الأعمال ما قد نال في ديننا فضلا خاصا لما يلقاه عامله من عناء خاص أيضا، كالمجاهد الذي ينال من الأجر ذروته، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام نفسه، ويحصد على جهاده نجاة من فتنة القبر؛ لأنه طالما تعرّض لفتنة السيف فصبر(1)؛ فإن المرابط قد حظي أيضا بفضل خاص لا يشاركه في غيره، **ذلك أن الرباط يتضمن معنى الجهاد، أما الجهاد فلا يتضمن معنى رباط، إذ إن الرباط هو شكل من أشكال الجهاد التي لا يلزم منها قتال، وهو ميسور لمن شاء.**

---

(1) روى النسائي في سننه، (405/4)، أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال: (**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**)، وقد ذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (142/2)، الحديث رقم، (1380)، مصححا إياه.

فما صلة ما نقول بالأرض المقدسة؟

هذا، وللأرض المباركة، بيت المقدس وما حولها خصوصية تعظيم أجر الرباط فيها، كنت قد أشرت إلى شيء منها في أطراف حديثي في السطور القريبة الماضية.

فلقد حامت حولنا ألوان التحديات وطبائع العدوان، منذ عقود توالت، سبقتها في القرون الماضية حملات أخرى من العدوان الخبيث، جعل من هذه الأرض، أرضَ صراع مرير بين الحق والباطل، وجهاد كبير بين المسلمين واليهود، وبين الشرق والغرب، ولقد علمت الدنيا أن الاحتلال اليهودي احتلال للأرض وطرد للسكان معاً؛ من أجل استقطاب أعداد هائلة من شُذّاذ الأرض من بني يهود إلى ديارنا..

إن أرضا هذا حالها، لا يصلح لتثبيت الناس فيها إلا أعظم المحفزات للرباط والثبات، إرغاما للعدو، الذي يرى من أعظم مكاسبه إخراج أهلها منها، لحساب القتلة والإرهابيين والمفسدين في الأرض، ولصالح من تربعوا على عرش العنصرية المقيتة في أشد ألوانها تطرفا.

وإننا نرى كيف أسرع أعداء الله تعالى، بقيادة شارون، إلى كل أصناف التقتيل بحق الشعب الفلسطيني، دونما تفريق في التقتيل ما بين ذكرٍ وأنثى، صغير وكبير، طفلٍ وشيخٍ، عسكري ومدني، طبيبٍ وعاملٍ، رضيعٍ وحاملٍ؛ ولم يفرقوا في إرسال نيرانهم وقذائفهم بين مركز عسكري ومستشفى، أو بين سيارة عسكرية وسيارة إسعاف؛ ومنعوا إيصال الدواء والماء والكهرباء والغذاء إلى المحاصَرين والمرضى والجرحى، ومنعوا دفن الجثث، جثث الشهداء، وأبقَوها على الأرض، تبثُّ مزيجا من الدهشة والأحزان، ثم مشوا عليها بدباباتهم ومجترراتهم ذهابا وإيابا، حتى سوَّوْها بالأرض؛ وهدموا البيوت على أصحابها، والمساجد على العُبّاد العاكفين فيها، ومسحوا مخيم جنين مسحا بمن فيه، وتركوا الأطفال يبحثون عن أمهاتهم وآبائهم، يئنّون في الطرقات، أو تحت الأنقاض، لتسمع الحجارة ما لم يسمعْه البشر؛ والآباء والأمهات يبحثون عن أطفالهم، في ليلٍ بهيم من المحنة القاسية الشديدة، أتُراه مات، أو أُلقِي عليه البيتُ الذي بُني للإيواء لا للخوف والذُّعر، أتُراه أصابته رصاصة أو قذيفة، أو أكله الجوع، أو، أتُراه ناله كلُّ ذلك، فيا الله لُطفك بهذا الشعب، وبأطفاله ونسائه ورجاله وفتيانه وفتياته، فهو في محنة تنخلع

لهولها القلوب من داخل الصدور، والعالم يُسرع أكثر ما يُسرع، إلى التفرج على مناظر تقشعر لهولها الأبدان، لا تستطيع فنون التمثيل، ودبلجات التصوير، وخيالات الفنانين أن تصوِّر لما حدث مثيلا في عالم خيالهم، ثم يرى الرائي كيف أسرع الشيطان الأكبر عدوّ الإنسان إلى البكاء على القتلة اليهود، والأمر كبير، والهول عظيم، والدماء لا زالت حتى كتابة هذه السطو تنزف، والأشلاء لا تزال تتناثر بين ركامات الخراب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله تعالى يحفظنا جميعا!!

أليس حال كهذا يدعو في أثناء دمائه الفيّاضة إلى الخروج من الأرض؟ أوليس ما ها هنا يصدُّ عن المقام في هذه الأرض المباركة..!

رويدك يا قارئي العزيز، فلا تخلع قلبك من داخل صدرك، ولا تنظر إلى ما يصدُّ عن هذه الديار المباركة، بل فانظر إلى ما يشدُّ إليها، إن كان ما هنالك من المحن يصدُّ الناس، فثمة من النصوص ما يشدُّ هؤلاء الناس، لذا، ولأجل مثل هذا الحال، تأتي النصوص لتؤدي وظيفتها المقدسة، ولتُعطي الأجر العظيم على المقام في هذه الديار الكريمة على الله، لو تُرِك الناس إلى ما يرون من الأهوال،

لخرجوا منها، ولكن النصوص النبوية والقرآنية، تُلقي في قلوب الناس القدرة على الصبر والمصابرة، وعلى البقاء والرباط..

أعرفت إذن أيها القارئ الكريم علاقة هذه النصوص بهذه الأرض؟ فإن عرفت، فالزم، والله يتولاني وإياك والمسلمين برحمته!

لا بد إذن من البقاء والثبات في هذه الأرض، ولا بد من مقابل عظيم يملأ المسلمَ قدرةً على الصبر العظيم، ويستهين معه بما يلاقيه من مِحَنٍ في طريقه الصعب ودربه الطويل؛ من هنا نرى الحكمة في الأجر العظيم الذي يناله المرابط، **فلولا ما تمكن في نفس المسلم من معاني هذا الأجر العظيم والفضل الكبير، لما كان له من قدرة على البقاء معتصما بدينه في هذه الأرض المُمتَحَنة.**

إن الأعمال العظيمة لا يمكن أن تُقَدَّم إلا بمقابل أعظم.

وإن الأعمال العظيمة التي تقتضي تضحيات كبرى، لا ترقى إلى مدارج القبول والتطبيق من قِبل الناس، إلا بمُحفّزات كبرى تسمح للإنسان حين المقارنة أن يُفَضل هذا الجزاء والمقابل والمُحَفّز على مصالحه الكبرى، وتملأ كيانه بما يجعله يعيش حياة أخرى لا يعيشها

الناس، وتدفعه دفعا إلى ما يحسبه الناس خسرانا، وهو في نفسه الفوز الكبير الذي تتضاءل أمامه كل المغريات.

لأجل ذلك عظُمَ جدا أجر الرباط، ومتعلقاتها من الإنفاق والصبر، فكان ما كان من أمثلة التضحيات الهائلة، التي أذهلت عقول المادّيّين، وغيّرت من نظرياتهم.

نعم، إن من الناس من يقدّم روحه وهو كافر بالآخرة، فيندفع اندفاعة الإعصار، رغم أنه لا يؤمن بجنة ولا نار، وإنما قدّم أمثال **هؤلاء أرواحهم لمعاني التحدّي التي حرّكت في نفوسهم أعلى الهمم،** ونحن لا نستنكر أن يمتلئ الإنسان بمعاني التحدي، **ولكننا لا نستحسن أبدا أن يتقدم متحديا، وقلبه خلوٌ من الإيمان بالله العظيم، قد يكون بطلا، لكن دخول الجنة ليس للبطولة فحسب، بل للبطولة المؤمنة!**

ونحن إنما نتحدث هنا عن ذوي المعاني السامية، ولم نتطرق إلى ذوي المعاني الهابطة، أو الذين يلتحقون بالخرافات المعاصرة، فهي ليست من موضوعنا، غير أننا نشير فقط إلى أن من الناس من يبذل نفسه فعلا، لا لأجل آخرة، وإنما رياءً وسمعة ولِيُرى مكانه، أو لأجل وهم وخرافة، كما قد رأى الناس ما حصل من جماعات خرافية

أمريكية تتخذ الانتحار[1] وسيلة لما تريد، وهي في جميع هذه الأحوال تُضحّي، لكن رويدك أيها القارئ، **فدين الله لا يرضى بالتضحية**

---

(1) نُشر في العدد (1383) من مجلة المجتمع الصادرة في الكويت بتاريخ 2000/1/17 مقال للأستاذ محمود الخطيب تحت عنوان: (الطوائف المجنونة .. الوجه الآخر للألفية) تحدث فيه عن أمثلة من هؤلاء الذين سيطرت على عقولهم خرافات متعلقة بالقرن الجديد، ذكر منها فرقة تسمى فرقة: المعبد الشمسي، يقول الأستاذ محمود الخطيب عن هذه الفرقة في المقال المشار إليه:

فرقة المعبد الشمسي هي إحدى الفرق المسيحية التي تعتقد بقرب انتهاء العالم وهي ذات نزعة تدميرية أسسها لوك جوريت في كندا عام 1977م وقد أقنع جوريت أتباعه بأنه كان عضواً في جهاز فرسان الهيكل المسيحي في القرن الرابع عشر أثناء حياة سابقة له، وأنه سيقودهم بعد الموت إلى كوكب يدور حول النجم سيروس (الشعرى)، وتعتقد هذه الفرقة أن الموت مجرد وهم وأن الحياة تستمر على كواكب أخرى، وقد تنظمت هذه الفرقة في استراليا وسويسرا وكندا وبلاد أخرى، ومعتقدات هذه الفرقة خليط من المسيحية وفلسفة العهد الجديد وهي ذات تمويل جيد، وقد ادعى جوريت أنه المسيح وأدين في كندا بتهمة حيازة بنادق مركب عليها كواتم للصوت، هذه الفرقة أحست بأنها كانت تتعرض للاضطهاد من حكومات مختلفة وتوقعت قرب نهاية العالم نتيجة كارثة بيئية محتملة وكانت مقتنعة بأنها ستلعب دوراً رئيسياً في انهيار العالم. وقد قررت أن على بعض أعضائها مغادرة الأرض قبل نهاية العالم والانتقال إلى عالم

المجرّدة من المعنى، بل يرضى بالتضحية لأجل مقابِل عظيم، هو الأجر العظيم في الدار الآخرة؛ من ها هنا يقع الافتراق بين مُضَحٍّ بلا هدف، ومُضَحٍّ تنفتح له أبواب الرحمة الإلهية.

"أفضل"، وتشكل النار جزءاً مهماً من معتقداتهم حيث يرون أن نهاية العالم ستكون عن طريق الحريق ولكي ينتقلوا إلى عالم آخر يجب أن يموتوا في النار، وهو ما حدث، ويؤقت هؤلاء عمليات انتحارهم عند الانقلابات الفصلية أي مع بداية أو نهاية أحد فصول العام.

في أكتوبر 1994م وبعد سلسلة من الإشاعات بين أعضائها حول اختلاسات مالية داخل المعبد الشمسي وقعت أول مأساة حين قتل طفل عمره ثلاثة أشهر فقط داخل مقر الفرقة في كندا بطعنه بقضيب خشبي في قلبه. أحد زعماء الفرقة كان قد أمر بقتل الطفل بزعم أنه عدو المسيح الموصوف في الإنجيل، بعد بضعة أيام تناول هذا الزعيم ويدعى جوزيف دي مامبرو واثنا عشر آخرون معه العشاء الأخير معاً، وبعد بضعة أيام على ذلك وقعت حوادث انتحار وقتل جماعية في قريتين من قرى سويسرا وفي منتجع للتزلج شمال مونتريال في كندا، النتيجة الإجمالية لتلك الحوادث هي انتحار 15 من أعضاء الفرقة ويدعون "الناهضون" بعد تناولهم السم، وقتل 30 من الأعضاء يدعون "الخالدون" بالرصاص، إضافة إلى قتل ثمانية آخرين يدعون "الخائنون".

أرض الرباط بين الشام وبيت المقدس

سأطرح هنا فكرة لم أرَ من يطرحها، ولقد كنت طرحتُها في كتابي مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان، وهي فكرة ذلك الخطأ القديم غير المقصود، المتمثّل في ذلك التعامل مع أحاديث فضائل الشام، وتحييدُها إلى دمشق وما حولها، بعيدا في الغالب عن بيت المقدس، رغم عدم وجود دليل يصرفها عن بيت المقدس إلى دمشق وما حولها، وكذا ذلك الخطأ غير المقصود في التعامل مع أحاديث فضائل بيت المقدس، وجعلُها أيضا في فضائل الشام.

إنه لا شك أن بيت المقدس جزء من الشام، وأن فضها هو فضل للشام، لكن الذي وقع في كثير من كتب الفضائل: نسيان بيت المقدس ذاتها، وتجيير فضائلها للشام، مع حَصْر الشام في الذهن المسلم في دمشق وما حولها.

ها هنا سأذكر بعض أحاديث فضائل الشام ممزوجة ببعض أحاديث فضائل بيت المقدس، ليتبين لنا فضل الشام عموما، وفضل بيت المقدس خاصة، لإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح.

إنني أؤكد أن لا أحد يستطيع صرف بيت المقدس وفلسطين عن أن تشملها أحاديث بيت المقدس خاصة والشام عامة؛ ولا أحد يستطيع أن يحصر الشام فيما هو خارج بيت المقدس وفلسطين، ذلك أن أحاديث بيت المقدس هي نصٌّ في بيت المقدس ذاتها، أما أحاديث الشام، فهي شاملة لفضل بيت المقدس أولا، لِما عُرف من مقام بيت المقدس العالي، مما يجعل أحاديث فضل الشام، كنوعٍ من أنواع توسيع مساحة الفضل، بسبب بركة بيت المقدس ذاتها.

وسأطرح الموضوع في مسألتين: الأولى: مزيج فضل الشام وبيت المقدس، والثانية: حديث أن أرض الشام في رباط دائم.

أولا: مزيج فضائل القدس والشام

ويظهر من الأدلة أن الشام[1] ذات مكانة خاصة تعلو بها على كثير من ديار الدنيا، وتسمو بها على كثير من بقاعها، ولا يتفوّق على مكانتها إلا أرض الحرمين الشريفين؛ فرصيدهما كان رصيد البداية، فكانت إمامَ الأمكنة، ورصيدُ الشام هو رصيد النهاية، وما فيها من معاني الثبات والصبر على ما ورد من الثوابت منذ البداية.

ويُستند لأجل هذا المعنى على أحاديث صحيحة من مثل ما رواه البخاري عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ:

---

(1) في معجم البلدان (354/3) لياقوت وهو يتحدث عن الشام قوله: وأما حدّها: فمن الفرات إلى العريش، وأما عرضها فمن جبل طيّء من نحو القبلة إلى بحر الروم، وفي قوله تعالى: (**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**)، يقول الإمام المفسر الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (77/9): والأرض هي أرض الشام، وهي الأرض المقدسة، وهي تبتدئ من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر، وتنتهي إلى سواحل بحر الروم، وهو البحر المتوسط، وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك.

أي مسجد وُضِعَ في الأرض أولَ[1]؟ قال: (**المسجد الحرام**) قلت: ثم أي؟ قال: (**مسجد الأقصى**) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (**أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّهْ فإن الفضل فيه**)[2].

فالحديث ينص على سبق أرض الحجاز بإقامة بيت يُعبد الله تعالى فيه، ثم على إقامة البيت الثاني لعبادة الله تعالى في بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، وهي من الشام، بل هي شامة الشام.

وأيضا يُستند على الأحاديث التي تشرح نهاية الكون كالتي وردت في قصة السيد المسيح عليه السلام، ونهاية فتنة الأعور الدجال، وتخليص البشر من يأجوج ومأجوج، وهي أحاديث طويلة ومعروفة في مصادرها من كتب السنة.

وأيضا على حديث الإمام أحمد الذي يرويه عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه ثم قال: (**يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل**

---

(1) هكذا في هذه الرواية، وفي روايات أخرى: أولا بدل أول.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري، (469/6، ح: 3366)، ورواه مسلم أيضا في صحيحه.

والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك)[1].

وعلى قوله ﷺ من حديث أحمد: (**بينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتُمِل من تحت رأسي، فظننتُ أنه مذهوب به، فأتبعتُه بصري، فعُمِدَ به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام**)[2]، قال الإمام العز بن عبد السلام: ((والمعني بعمود الإسلام: ما تعتمد أهل الإسلام عليه))[3]؛ وقال ابن تيمية: ((وعمود الكتاب والإسلام: ما يُعتمد عليه، وهم حَمَلته القائمون به))[4]؛ وأرى تفصيلا

---

(1) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (322/16، ح: 22386) ورواه أيضا أبو داود (358/2، ح: 2535).

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده (78/16، ح: 21630)، وصحح إسنادَه محققُه حمزة أحمد الزين، ولقد رواه أيضا الطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم في مستدركه، وذكر الأستاذ الألباني رواية أحمد في صحيح الترغيب والترهيب، (195/3، ح: 3094).

(3) في رسالته: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق إياد خالد الطباع، (18).

(4) مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، (ج27 ص28).

لقولهما أن عمود الكتاب هو ثوابت الشرع بصفائها وبُعدها عن اللّوَث والدَخَل والدّخَن، مع ما يلزم هذه الثوابت من علماء وأئمة يحملونها حملا صادقا.

ومن الأحاديث النبوية أيضا: قوله ﷺ من حديث أبي الدرداء عند أبي داود وأحمد والحاكم: (**فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يقال لها: الغُوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ**)[1]؛ وقال شارح سنن أبي داود شمس الحق العظيم آبادي: ((فسطاط المسلمين: أي حصن المسلمين الذي يتحصنون به وأصله من الخيمة، الملحمة: المقتلة العظمى في الفتن الآتية، والغُوطة: موضع بالشام كثير الماء والشجر))[2]، وقال العلامة عبد الرؤوف المناوي: ((أصل الغُوطة كل مكان كثير الماء والشجر))، ونقل شارح

---

(1) مسند أحمد طبعة دار الحديث بالقاهرة، (75/16، ح: 21622)، ورواه أبو داود (عون المعبود شرح سنن أبي داود)، (273/11، ح: 4286) ويُنظر في شرح الحديث: (فيض القدير) للعلامة عبد الرؤوف المناوي، (439/4) وقال الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي (37): حديث صحيح.

(2) عون المعبود لشمس الحق الفيروزآبادي، (273/11).

أبي داود عن العلقمي: ((وهذا الحديث يدل على فضيلة دمشق وعلى فضيلة سكانها في آخر الزمان، ومن فضائلها أنه دخلتها عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ)).

ومنها حديث الترمذي[1]: (**إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم**)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وواضح منه أن أهل الشام مقياس عالمي إسلامي للصلاح والفساد؛ فالفساد لن يكون طاما إلا بفساد أهل الشام، فإن فسدوا فلا خير في أحد، وإن صلحوا، فالخير مأمول، وما دام رسول الله قد ذكر أن الشام خيرة الله من بلاده يصطفي إليها خيرته من خلقه، فإن لذلك دلالة على استمرار الصلاح في أرض الشام.

وهذا رسول الله ﷺ يوجه أحد صحابته إلى اللحاق بجند الشام، فلقد روى أبو داود وأحمد عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنودا مجندة: جند**

(1) رواه الترمذي، (ح: 2192 ج485/4)، ورواه الإمام أحمد، (ج243/12، ح: 15553 و15534)، طبعة دار الحديث بالقاهرة، وصحّحه الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي، (ص17).

بالشام وجند باليمن وجند بالعراق)؛ قال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: (**عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واسقوا من غُدَرِكم، فإن الله قد توكل لي بالشام وأهله**)[1]؛ وقال أحد رواة هذا الحديث معلقا على الجملة الأخيرة منه: "ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه".

فهذه الأحاديث وغيرها مما تناثر في بطون الكتب، يجعل من الشام أرض صلاح في نهاية الزمان، فعلى صفحتها يُجتثّ الفساد، وينكسر احتجاج أهل الصليب بعيسى، وفي ساحتها ينبثق ميزان التفريق بين الصلاح والفساد؛ كل ذلك بسبب ما عُجنت به طينة هذه الأرض من معالم الإيمان.

---

(1) أبو داود، مع شرحه عون المعبود، (116/7، ح: 2480)، ومسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، (231/13، ح: 16942)، صحح إسناده محققه حمزة أحمد الزين، وقال الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي (12): حديث صحيح جدا.

ولذا نرى ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: ((فكان الإسلام في الزمان الأول ظهوره بالحجاز أعظم، ودلت الدلائل المذكورة[1] على أن ملك النبوة بالشام، والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يُحشر الخلق، **والإسلام في آخر الزمان يكون أظهر بالشام**، وكما أن مكة أفضل من بيت المقدس، فأول الأمة خير من آخرها، وكما أنه في آخر الزمان يعود الأمر إلى الشام، كما أسري بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، **فخيار أهل الأرض في آخر الزمان ألزمهم مهاجر إبراهيم، عليه السلام، وهو بالشام**))[2].

وإنما عنى الإمام ابن تيمية بقوله: (والحشر إليها..) ما ورد عن رسول الله ﷺ عند الإمام أحمد عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس، فقال: (**أرض المنشر والمحشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه**)؛ قلت:

---

(1) كان ابن تيمية قد ذكر أحاديث متعددة حول هذا الموضوع في فتاواه، قبل الفقرة التي ذكرناها.

(2) مجموعة الفتاوى، تأليف: ابن تيمية، اعتنى بها، وخرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز (ج28/27).

أرأيتَ من لم يُطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: (**فليهد إليه زيتا يُسْرَج فيه، فإن من أهدى له كمن صلى فيه**)[1].

قال العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي في بيان معنى أن الشام أرض المحشر والمنشر: ((أي البقعة التي يجتمع الناس فيها إلى الحساب، ويُنشرون من قبورهم ثم يُساقون إليها، وخُصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها: (**باركنا فيها للعالمين**) وأكثر الأنبياء بُعثوا منها، فناسب كونها أرض المحشر والمنشر))[2].

والأمر لا يقتصر على ما ذكرنا من كونها حظيت ببشرى البقاء حتى النهاية على أصول الهداية الأولى، بل جُعِلَت منذ عصور وأزمان أرض صراع مرير بين الحق والباطل؛ فأنظار الباطل لم تفتأ تنظر إليها طامعة، لا في هدمها وتخريبها فحسب، بل في سرقتها من أيدي أهلها، ومن حضارتها ودينها ولغتها، بعد أن بنى هذا الباطل أهدافه على رُؤى

---

(1) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق حمزة أحمد الزين، (606/18، ح: 27498) قال محققه: إسناده صحيح.

(2) فيض القدير، تأليف العلامة: محمد عبد الرؤوف المناوي، (171/4).

التحريف والتخريف، التي تجعل من هذه الأرض بؤرة لباطل يحكم العالم منها، سواء كان هذا الباطل يهوديا أو نصرانيا.

والمشاهَد في تاريخ هذه الأرض المباركة، ليس كونها أرض صراع بين الحق والباطل فحسب، بل هي أرض انتصار للحق على الباطل وإن طال الصراع، أولم يشهد العالم في تاريخه الطويل ما حل بها من صراعات انتهت بنصر أهل الحق وإن طال الزمان؛ منذ أن دخلها يوشع بن نون عليه السلام ببني إسرائيل الذين كانوا يمثلون أهل الحق حينها على كثير من الدَخَل فيهم، ومرورا بانتصار داود على جالوت، ثم بفتوحات الإسلام فيها، ثم بانتصار الإسلام فيها على الصليبيين والتتر، رغم طول الزمان، وقلة يقين رعاع الناس بالنصر المبين، وفي كل ما مضى بُشرى لأهل الإيمان بانتصار الحق العربي الإسلامي على الباطل اليهودي الموجود فيها في عصرنا.

ولِذا استحقت هذه الأرض من أهل الإسلام أن تُوجّه إليها أعظم اهتمامها، لصد العدوان المتعاظم، الذي لا يتوقف حتى يزول مُلك هذا العدوان وآخر ملوكه ممثلا بالأعور الدجال.

ثانيا: حديث أن أهل الشام في رباط لا ينقطع

ولما كان الأمر كذلك، كان لا بد أن يقول الوحي كلمته المسموعة في حضِّ المسلمين على الرباط فيها، والاهتمام بها، مع بشريات بالنصر القريب بإذن الله تعالى.

فإذا أثبتت الآيات القرآنية الكريمة بركتها وقُدسيتها، لترسخ في نفوس المسلمين مكانتها العالية، فقد قامت أحاديث الرسول ﷺ بتوجيه أنظار المسلمين إلى ضرورة الرباط فيها، وتولّت أحاديث أخرى بيان فضل هذا الرباط؛ كل ذلك ليمتزج في نفوس المسلمين ما لها من مكانة، مع ما يجب في حقها من رباط، لإبقاء جذوة الإسلام فيها ماثلة.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، قال: (نا معاوية بن يحيى، عمن حدثه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (**أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون**

في سبيل الله، فمن احتل منها مدينة فهو في رباط، ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو في جهاد)[1].

ورواه بنحوه أيضا من طريق أرطأة بن المنذر، قال: **(فمن نزل مدينة من المدائن فهو في رباط أو ثغرا من الثغور فهو في جهاد)**.

ثم قال ابن عساكر: وقد روي عن أبي الدرداء بإسناد آخر أمثل من هذا إلا أنه غريب، فذكر هذا الطريق راويا إياه بإسناده[2] عن

---

(1) تاريخ مدينة دمشق، تأليف: الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، (282/1-283)، وهذا إسناد ابن عساكر إلى معاوية بن يحيى: أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن عند الله بن الحسن بن أبي الحديد، أنا جدي أبو عبد الله، أنا أبو بكر محمد بن عوف بن أحمد المزني، أنا أبو العباس محمد بن موسى بن الحسين بن السمسار، أنا محمد بن خُرَيم، نا هاشم بن عمار، نا معاوية بن يحيى.

(2) وهذا هو إسناد ابن عساكر: قال: أنبأناه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي العلاء المِصّيصي وأبو محمد هبة الله بن أحمد الأكفاني وأبو القاسم الحسين بن أحمد التميمي، وأبو إسحاق الحسين بن أحمد التميمي، وأبو إسحاق إبراهيم بن طاهر الخُشوعي، قالوا: أنا أبو القاسم علي بن محمد بن أبي العلاء، أنا أبو بكر أحمد بن جرير بن أحمد بن خميس السَلَماسي، نا أبو الحسن المظفر بن الحسن، نا أحمد بن عمير بن يوسف بن جَوْصا، نا عمرو بن عثمان، نا ابن حِميَر عن سعيد

شهر بن حوشب عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: (**سيفتح على أمتي من بعدي الشام وشيكا، فإذا فتحها فاحتلها فأهل الشام مرابطون إلى منتهى الجزيرة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم وعبيدهم، فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو في جهاد، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو في رباط**).

ورواه أيضا الربعي في فضائل الشام ودمشق[1] وقال الألباني في تخريجه: قلت: حديث ضعيف، لأن راويه عن أبي الدرداء لم يُسمّ، فهو مجهول، ومن طريقه رواه الطبراني[2] كما في المجمع.

لكن الأستاذ الألباني رحمه الله تعالى لم يذكر في تخريجه للحديث رواية ابن عساكر التي ذكرتها، ولقد روى ابن عساكر الحديث من طريقين، مدار إحداهما على معاوية بن يحيى عمن حدثه عن أبي الدرداء، ففيها مجهول هو الراوي عن أبي الدرداء، كما هو الأمر عند

البَجَلي عن شهر بن حوشب..إلخ.

(1) تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق، للربعي، خرجها الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، رحمه الله تعالى، (21).

(2) مجمع الزوائد، تأليف نور الدين الهيثمي، (60/10).

الطبراني والربعي، لكن ابن عساكر قال كما ذكرت إنه روي بإسناد آخر أمثل من هذا الإسناد وقال: إلا أنه غريب.

هذا ما قاله، ومدار الرواية الثانية على شهر بن حوشب، وفيه خلاف مشهور، لكن قال فيه الذهبي في السير: **والاحتجاج به مُتَرَجّح**[1]، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لمسند الإمام أحمد فيه: **وهو ثقة تكلم فيه بعضهم بغير حجة**[2][3].

---

(1) سير أعلام النبلاء، تأليف الذهبي، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، (378/4).

(2) مسند الإمام أحمد، طبعة دار الحديث بالقاهرة (206/1) تعليقا على الحديث رقم: (97) الذي جاء من طريق شهر بن حوشب، وقد تضمنت هذه الطبعة تحقيقات الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى، ثم أتم تحقيقها أحمد محمد الزين.

(3) ذكر الذهبي في الميزان (283/2-285) طائفة من أقوال ذوي الشأن في علم الحديث، تدور حول الموقف من شهرٍ الراوي عن أبي الدرداء، وأقوالهم تختلف في توثيق أو تضعيف شهر بن حوشب، لكنه ذكر ممن وثّقه: البخاري، حيث نقل –أي الذهبي عن الترمذي عنه قوله: شهرٌ حسن الحديث، وقوّى –أي البخاري– أمره (وقال البخاري كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (4-374): "إنما تكلم فيه ابن عون؛ ثم إنه روى عن رجل عنه". ونقل عن

ولذا؛ فإنني أرى المعنى الذي يحمله الحديث يرقى إلى الاحتجاج به، وهو ما ذكرته من أن أهل الشام في رباط إلى يوم القيامة، وإنما

العجلي قوله فيه: ثقة شامي، وعن يحيى بن معين: ثبت، وأيضا عنه: ثقة، وعن يعقوب بن شيبة: شهر ثقة طعن فيه بعضهم، وعن أحمد بن حنبل: ما أحسن حديثه، ووثقه، وعنه أيضا: ليس به بأس، وعن الفسوي: شهر وإن تكلم فيه ابن عون فهو ثقة، وعن ابن زرعة: لا بأس به.

هذا وإن نقلَ الذهبي عن شعبة بن الحجاج وأبي حاتم وابن عون والنسائي وابن عدي، تضعيفَ شهر بن حوشب، غير أنني أميل إلى أقوال أمثال البخاري والإمام أحمد، ومن قال مثل قولهما ممن ذكرنا عنهم توثيقه، وظهر لي كما نقلته عن البخاري أنه إنما ضعّفه ابن عون، ولكنه رغم تضعيفه روى عن رجل عنه، فيكاد تضعيف ابن عون لا يقوى على التضعيف، ويظهر أنه لكل ذلك قال الذهبي في السير (378/4): الرجل غير مدفوع عن صدق وعلم، **والاحتجاج به مُتَرَجّح**، مع قوله في مقدمة ترجمته في السير: كان من كبار علماء التابعين. هذا، ويبدو أن الأستاذ أحمد محمد شاكر لم ير في قول من ضعّفوه حجةً، فقال ما نقلته عنه: **وهو ثقة تكلم فيه بعضهم بغير حجة**.

وأخيرا، أودّ أن أختم كلام الأئمة هنا حول شهر بن حوشب، بقول أستاذي الفقيه المحدِّث العلامة الشيخ محمد عوامة، حفظه الله تعالى، فقد ذكر لي أن شهرا هذا حسن الحديث، جاء ذلك في كلام أستاذي ضمن مكالمة هاتفية من بيتي في مدينة الخليل، إلى مكتبه البحثي في المدينة المنور، بتاريخ 2002/4/22.

ارتقى في نظري إلى الاحتجاج به لّما تبيّن لي من ترجيح توثيق شهر بن حوشب، ولِما قام حول معنى الحديث من شواهد تقوّيه..

إنني لا أريد أن أقول هنا إن الحديث هو مصدر فكرة الرباط في فلسطين، فهو دليل على أنها والشامَ من حولها أرضُ رباطٍ، بل أريد أن أقول: إن الرباط في الأرض المقدسة يستند على أكثر من دليل، وإذا لم يصلح حديث رباط أهل الشام بذراريهم وأزواجهم دليلا على هذا الاعتبار، فثمةَ ما يصلُح لاعتبار فلسطين أرضَ رباطٍ إلى أن تقوم الساعة.

إن أمرَين اثنين يُسندان حديث رباط أهل الشام، يصلُحان لإسناد ما يحمله من معنى..

الأمر الأول: طبيعة الحالة العامة للأرض المقدّسة، خاصةً في الزمان المتأخّر، فهو أرض صراعاتٍ وحروب، وهي مطمعٌ لأهل الشرّ والعُدوان، وهي التي ينظر إليها كثير من أهل الكتاب، اليهود والنصارى، كأرضٍ يرون أنها لهم دون الناس أجمعين، وهم يملؤون بذلك نفوس أبنائهم، ويسعَون في كل حين وجيل إلى إنفاذه؛ وما الحروب الصليبية القديمة، وما الحرب الغربية المعاصرة، عنا ببعيد، فكلتا

الحربين قامتا فيما قامتا عليه من أصول: أن فلسطين هي للنصارى في حالة الحروب الصليبية، وهي لليهود في حالة الحرب الغربية المعاصرة على فلسطين.

إن أرضا ما تصل إلى مثل هذا الحال، حريٌّ أن تكون أرض رباط، إذا ما فهمنا أن البقاء بنية المحافظة عليها وعلى هويّتها شكلٌ من أشكال الرباط، التي لم تأت نصوصٌ تُخرجه منه، وهو ما قد تمّ شرحُه في صفحاتٍ سابقة في هذا البحث.

إن هذا المعنى يجعلُها أرض رباط ما دامت تحت المطامع المستمرّة، وهو ما يُسند الحديث الذي نحن بصدده، والذي ينصّ على أن أرض الشام أرض رباط إلى يوم القيامة، إذ يظهر أن الصراع عليها مستمرٌّ إلى يوم القيامة، خاصةً إذا علمنا أنه يخرج مع الدجال في آخر الزمان سبعون ألفا من يهود أصبهان عليهم الطيالس، وخاصّةً إذا استحضر كلٌّ منا حديث الشجر والحجر في آخر الزمان، إذ يدلّ على حالة صراعٍ تدور رحاها في آخر الزمان.

هذا أولُ ما أراه يُسند معنى الحديث، الذي ينصّ على أن أهل الشام في رباط إلى يوم القيامة، وأما ما يُسندُه ثانيا، فهو:

الأمر الثاني: فلقد مضى معنا أنه قد يُعبّر عن الرباط بالملازمة، وأكدتّ ذلك حين ذكرت حديث الرسول ﷺ الذي يذكر التعبير نفسه، فيما فسرته باعتباره تعبيرا آخر عن الرباط.

أقصد بذلك ما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(ستكون هجرة بعد هجرة، فخِيار أهل الأرض ألزمُهم مُهاجَر إبراهيم، ويبقى في الأرض أشرار أهلها، تلفِظُهم أرَضوهم**[1]**، وتَقْذَرُهُم**[2] **نفْسُ الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير)**[3].

وكنت قد ذكرت ما يؤيد هذا القول لغويا وفقهيا من معنى الملازمة الواردة هنا في هذا الحديث، ويقتضي الأمر بعض التكرار،

---

(1) تلفظهم أرضوهم: أي تقذفهم وترميهم، يقال: قد لفظ الشيء يلفظه لفظا إذا رماه.

(2) تقذرهم: تكرههم، وقال الخطابي: تأويله أن الله يكره خروجهم إليها ومقامهم بها؛ عن عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، (114/7).

(3) رواه أبو داود عن ابن عمرو، والحاكم عن أبي هريرة، صححه الألباني رحمه الله تعالى، يُنظر: (صحيح الترغيب والترهيب) (194/3، ح: 3091).

حتى تكون أفكار الموضوع موصولة دون عزو إلى نقل سابق قد يقطع حبلها..

فالحديث يستخدم ما يمكن أن يكون تعبيرا آخر عن (**الرباط**)، فقد قال: (..**ألزمهم مهاجر إبراهيم**..) واللزوم أشبه ما يكون بمعنى الرباط؛ ولقد مررنا بتعريف الرباط في مطالع بحثنا هذا، في اللغة وفي الفقه، ورأيناه يدور ويحوم حول معاني التثبيت والشد والدوام واللزوم لشيء ما؛ وهذا ما يُمكن أن يُرى في معجم مقاييس اللغة لابن فارس كما قد نقلناه عنه، حيث يقول عن الأصل ربَط: ((أصل واحد يدل على **شدّ وثبات**،...، ومن الباب الرباط: **ملازمة ثغر العدو**، كأنهم قد رُبطوا هناك فثبتوا به ولازموه..))[1].

وإذن؛ فلقد ذكر ابن فارس أن ملازمة الثغر رباط، حيث إنه إن لم يكن الرباط لزوما فما هو الرباط إذن؟ وعلى هذا فالملازمة رباط والرباط ملازمة.

ونرى في أئمة الفقه من شرح الرباط بالملازمة للمكان المرابَط فيه، ففي فتح الباري للحافظ ابن حجر عند شرحه بابَ فضل رباط

---

(1) معجم مقاييس اللغة، (478/2).

يوم في سبيل الله من أبواب صحيح البخاري، نقرأ أن الرباط هو: "..**ملازمة المكان** الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم"[1]؛ وفي الموسوعة الفقهية نقرأ ما يلي: "الرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدوّ، وأصله: أن يربط كل من الفريقين خيله، **ثم صار لزوم الثغر رباطا**.."[2]؛ ويقول الإمام السندي في شرحه لحديث: (**من رابط يوما وليلة في سبيل الله** ..): "من رابط: أي لازم الثغر"[3]. فهكذا دخلت ملازمة مكان ما في مفهوم الرباط.

ويقول الإمام ابن تيمية: "فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من **ألزمهم مهاجر إبراهيم**، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام"[4].

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ ابن حجر، كتاب الجهاد، شرح الحديث رقم (2892) (ج101/6).

(2) الموسوعة الفقهية، إصدار: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، (ج76/22).

(3) حاشية السندي على سنن النسائي، مطبوع بهامش سنن النسائي، (346/6).

(4) مناقب الشام وأهله، ابن تيمية، مطبوع بذيل تخريج فضائل الشام ودمشق

ولكن، ماذا يقول ابن فارس نفسه في معنى اللزوم؟

لدى رجوعي إلى كتابه معجم مقاييس اللغة، ظهر من تعبير ابن فارس عن معنى الجذر **(لزم)** أنه يكاد يكون لازما من لوازم الرباط؛ حيث يقول: ((اللام والزاء والميم أصل واحد صحيح، يدل على **مصاحبة الشيء بالشيء دائما**..))[1]، فالملازمة مصاحبة والمرابطة مصاحَبة أيضا، وكلاهما يُعَبر به عن قرينه.

فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان قد ورد في الشاهد الذي نحن بصدده ما يفيد أن خيار أهل الأرض هم أَلْزَمُهم مُهاجَر إبراهيم، وإذا كنا قد أكدنا أن الرباط ليس من الأسماء ذات المعنى الشرعي الخاص، بل معناه لا يخرج في الغالب عما في كتب اللغة؛ فما يمنعنا إذن من تفسير هذه الملازمة لُمهاجَر إبراهيم بالرباط، الذي هو في حد ذاته: ملازمة للثغر.

والحديث يقرّر أن ثمة هجرات ستكون وستتتابع، ويقرّر أن خيار أهل الأرض هم أكثرهم التزاما لُمهاجَر إبراهيم ﷺ، في الوقت الذي

للألباني والربعي، (80).

(1) معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، (245/5).

تقرر فيه أحاديث أخرى، ذكرنا بعضها، أن الرباط أفضل الأعمال، **وإنما كان سبب خيريّة الأكثر التزاما بمهاجَر إبراهيم، هو التزامهم أفضلَ الأعمال في عالم الصراع مع الأعداء، لأنه لا تفضيل بلا معنى حسب شرعنا، وأفضل الأعمال حينها سيكون، كما هو كائن الآن: الرباطَ، الذي ثبتت أفضليتُه على الأعمال في أحاديث ذكرها في صفحاتٍ سابقة.**

فيكون لازم معنى الحديث أن الملتزمين بالمقام في الشام هم خيارَ أهل الأرض، وهم بالضرورة المرابطون، لأن الالتزام رباطٌ، والرباط التزامٌ، فيكون المقيمون في أرض الشام مرابطين، لأن الالتزام هو الرباط، وذلك دون تقييد الرباط والالتزام لمهاجر إبراهيم بزمان معين، إذ الحديث لا يشترط ذلك القيد؛ فيكون الالتزامُ هو الالتزامَ الدائم إلى يوم القيامة، وأي التزامٍ أكثر استمرارا من التزام الإنسان بالحياة في الشام مع أهله وزوجه وذرّيّته؟ وهو مفهوم حديث ابن عساكر الذي نقلناه، والذي يقرر أن أهل الشام هم وأزواجهم وذراريهم في رباط إلى يوم القيامة.

وبناء على هذا التمازج بين معاني أحاديث الرسول ﷺ التي يُصدّق بعضُها الآخر، فإنني أقول: إن حديث شهر بن حوشب الذي

ذكرته، والذي يتضمن أن أهل الشام مرابطون، قد عثر على شاهد لمعناه يتأيد به مضمونه، لينسحب على أهل الشام فضلٌ يتجاوز فضلَ البلدان ذات الفضل بالمقام فيها، إلى فضل الفوز بالرباط في سبيل الله تعالى، مع ما لهذا الرباط من أجر وفضل خاصَّين.

هذا، وقوله ﷺ في رواية ابن عساكر: (**ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو في رباط**)، يشهد له بإذن الله تعالى أمورٌ ثلاثة قد تقدّم الحديث في بعضها، وهي تتمازج مع بعضها تمازُجَ الماء بالماء، وهي:

الأمر الأول: كون هذه الأرض أرضَ صراعٍ لا ينقطع، وهو ثابت تاريخيا، خاصة في زماننا التي نعيشه، **فلم يعرف العالَم الإسلامي أرضا تعرَّضت لدفعات عملية من الاحتلال الصليبي أو الفرنسي أو البريطاني، ومن تربُّصات لاحتلالها في غياب مثل هذه الدفعات، بدوافع دينية أو سياسية أو اقتصادية، مثل أرض بيت المقدس وما حولها**.

وأرض الشام عموما، وأرض بيت المقدس خصوصا، هما الأرضان اللتان تعرضتا لاحتلال صليبي طويل، مع دفعات استعمارية ثانية، مع تربُّصات ثالثة، وهي التي تُحتَلُّ الآن من قِبَل أعداء الله

والإنسان، مدفوعين بقوَّة عدوٍّ الإنسان والإسلام في هذا العصر، أعني أمريكا؛ ولقد تقدّ شرحُ هذا قريبا.

الأمر الثاني: فكرة الرباط في الأرض التي تعيش صراعا ما، وهي فكرة إسلامية عريقة، شهدت لها الأحاديث الصحيحة.

وهما أمران يشهدان لفكرة الرباط ببيت المقدس وأكنافها شهادة خاصة.

الأمر الثالث: حديث خيار أهل الأرض، وأنهم هو الذين تميّزوا على غيرهم بكونهم أكثر التزاما بمهاجَرِ إبراهيم.

إنني وإن كنتُ لا أستطيع تصحيح حديث ابن عساكر، غير أن كل ما مضى يشهد له ولبيت المقدس شهادة واحدة.

الخاتمة

وبعد عزيزي القارئ الكريم، فلقد كنا معاً عزيزي القارئ الكريم في جولة من جولات الرباط، وأنا وأنتَ في رباط دائم مع هذا الشعب المرابط؛ ولقد كشفت لنا نصوص الوحي الشريف مقام الرباط، ومقام أرض الرباط، وكشفت لنا كتب اللغة والفقه مفهوم هذا الرباط، واقتنصنا دُرَراً من فقهاءَ أفذاذ، كشفت لنا عن فقه الرباط كشفا أرجو أن يكون كافيا ومستجيبا لحاجة العصر؛ وربطنا كل ذلك ببيت المقدس، فهي بؤرة أرض الرباط، وتناولنا معاً حديث ابن عساكر الذي يقرِّر أن بيت المقدس والشام هما أرض رباط دائم، وظهر لنا مع ما طرحناه مما سمَّيناه شواهدَ، صحةَ مضمون هذا الحديث..

كل ذلك وفكرة الرباط تَعظم في نفسي ونفسك، وهي من بديع طروحات الإسلام في عالَم الصراع، وظهرت لنا هذه الفكرة، كشكل من أشكال الصراع غير العنيف، والتي لا يلزم منها دمٌ ولا قتال، واكتشفنا أن شعب فلسطين، حتى لو لم يحمل سيفا، ولم يملك رصاصة، فهو في فضلٍ عظيم..

إن دين الله هو أعظم ما يؤسِّس في النفوس متطلبات الحياة العزيزة، واقرأ إن شئتَ ما شئتَ أن تقرأ، من شرائع الإسلام، وبديع تربيته، فسترى أنك أمام دين لم يؤسِّسْه بشر، وأمام قرآن عظيم، تنزيل من رب العالمين، وأمام سنة لا ينطق صاحبُها عن الهوى.

أرجو أن تكون هذه المعاني قد تجلَّت أمامك، كما لو كانت إنسانا يتحرك، حتى تكون حيّةً فيك، وأقول لك: **إنكَ مرابط على الأرض المباركة قبل قراءتك هذا البحث، وأنا أزعم أنني ما بيَّنت لك إلا فضل مقامك في أرضك، تتزوج فيها، وتبني فيها، وتُعمّرها، وبنفسك وأهلك وذرِّيَّتك تَعْمُرُها؛ وبَثَثْتُ في نفسك مشاعر البقاء الهادِف، مع متعة هذا البقاء في الأرض المقدسة، رغم المِحن.**

فإن كان زعمي هذا صحيحا، فأرجو أن يوافيني الله تعالى عليه أجرا عظيما، والله غافِر لي ولك، ومن الله القَبول.

ولا تنس أخاك كاتب هذه السطور من دعوة تشرح الصدور، وتصرف الهمَّ عن المَصدور.

والحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث

1. القرآن الكريم

- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري

2. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، بلا تاريخ ولا عنوان.

- أحمد شلبي

3. العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987م.

- أحمد بن محمد بن حنبل

4. المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، أكمل تحقيقه: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، 1995م.

- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد

5. معجم تهذيب اللغة، تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، 2001م.

- البخاري، محمد بن إسماعيل

6. صحيح البخاري، مطبوع مع فتح الباري، للحافظ ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م.

- أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي

7. الكليات، بعناية: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

- ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي

8. الإحسان في تقريب صحيح ابن حِبّان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1988م.

- الترمذي، محمد بن عيسى

9. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وأتم تحقيقه: إبراهيم عطوة عوض، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1975م.

- التهانوي، محمد علي

10. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق د. علي دحروج، نقل نصَّه الفارسي إلى العربية د. عبد الله الخالدي؛ بيروت، مكتبة لبنان، 1996م.

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم

11. مجموعة الفتاوى، اعتنى بها: عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة، دار الوفاء، 1997م.

- الجمل، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي

12. حاشية الجمل على الجلالين، وهو نفسه الفتوحات المكية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية،

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر

13. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان، القاهرة، 1987م.

- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان

14. سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المتخصصين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.
15. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1963م.

- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضّل

16. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، 1992م.

- أبو الحسن الربعي

17. فضائل الشام ودمشق، خرّج أحاديثه الأستاذ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ.

- ابن رشد، أبو الوليد

18. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق محمد العرايشي وأحمد الحبابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

- الزمخشري، محمود بن عمر المعتزلي.

19. أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، 1992م.

- السرخسي، محمد بن أحمد

20. شرح كتاب السِّيَر الكبير لمحمد بن حسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجِّد، معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، القاهرة، 1971م.

- سعيد حوى

21. الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة.

- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف

22. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: أحمد التونجي، عالَم الكتب، بيروت، 1993م.

- السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي المدني

23. حاشية الإمام السندي على سنن النسائي، المطبوع بهامش سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، 1997م.

- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور

24. التحرير والتنوير، بلا ذكر للناشر والتاريخ ومكان النشر.

- عبد الحميد طهماز

25. التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران، دار القلم، دمشق، 1994م.

- عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام

26. ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق.

- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب

27. المحرَّر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت.

- العظيم آبادي، محمد شمس الحق

28. عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

- ابن عساكر،

29. تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العَمري، دار الفكر، بيروت، 1997م.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

30. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1971م.

- الفيروزآبادي

31. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
32. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.

- ابن قدامة، أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي

33. المغني، دار الفكر، بيروت، 1997م.

- القرطبي، محمد بن أحمد ابن فرْح الأنصاري الأندلسي.

34. الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

- القنوجي البخاري، صِدّيق حسن خان

35. فتح البيان في مقاصد القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني

36. سنن ابن ماجه، دار المعرفة، بيروت، 1996م.

- محمد ناصر الدين الألباني

37. صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، 2000م.

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

38. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، رقَّمه وخرّج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، حققه: عرفان حسونة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

- المطرِّزي، ناصر الدين أبو الفتح

39. المُغرب في ترتيب المُعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، 1979م.

- المناوي، محمد عبد الرؤوف

40. التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، 1990م.

41. فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، محمد بن مكرّم

42. لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ.

- ابن النحاس، أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدُّمياطي

43. مشارع الأشواق إلى مصارع العُشّاق، تحقيق إدريس محمد علي ومحمد خالد اسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1990م.

- النسائي، محمد بن شعيب

44. سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، 1997م.

- الهيثمي، علي بن أبي بكر

45. مجمع الزوائد ومنبع الفرائد، تصحيح: حسام الدين القدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982م.

- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت

46. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، 1993م.

- ياقوت الحموي

47. معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

ثانيا: الدوريات:

48. مجلة المجتمع، الكويت، العدد 1383.

المحتويات